محمد قطب

هل نحن مسلمون

دار الشروق

هَلْ نَحْنُ مُسْلِمُونَ

صدرت الطبعة الأولى في ١٩٨٨
وصدرت طبعاته التالية في: ١٩٨٩ - ١٩٩١ - ١٩٩٣ - ٢٠٠١
الطبعة السادسة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ . أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » صدق الله العظيم .

« ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ، ولكن هو ماوقر فى القلب وصدقه العمل » .

حديث شريف

مقدمة

كيف انحسر مفهوم الإسلام فى نفوسنا إلى هذا الحد ؟؟

كيف انحسر من مفهوم شامل للحياة البشرية فى جميع اتجاهاتها ، بل مفهوم شامل — فى الحقيقة — للكون والحياة والإنسان ، لكى يصبح مجرد عبادات تؤدى على نحو من الأنحاء ، بل لا تؤدى أحياناً إلا « بالنية » . . بل لا تؤدى أحياناً على الإطلاق ، لا بالنية ولا بغير النية . . ثم يظل يدور فى أخلادنا — مع ذلك — أننا مسلمون صادقو الإسلام ؟

كيف انحسر من دستور شامل يحكم الحياة البشرية كلها وينظمها : يحكم اقتصادياتها واجتماعياتها ، ومادياتها وروحانياتها ، وسياستها وأفكارها ومشاعرها ، وسلوكها العملى فى واقع الحياة ، لكى يصبح مجرد مشاعر هائمة لا رصيد لها من الواقع . . مشاعر تدور فى نفس صاحبها — إن دارت — وهو يعيش فى مجتمع غير مسلم ولا يستنكر الحياة فيه ولا يحاول تغييره . وتدور فى نفسه — إن دارت — وهو ذاته لا يسلك سلوك المسلمين فى حياته الخاصة ولا العامة . فتقاليده غير إسلامية ، وأفكاره غـــــير إسلامية ، وتصوراته غير سلامية ، وسلوكه اليومى لا يمت بصلة إلى الإسلام ، سواء فى

علاقة الفرد بالفرد أو الفرد بالجماعة أو الفرد بالدولة ، أو علاقة الرئيس بالمرءوس . . .

كيف انحسر من حياة كاملة قائمة على مبادىء الإسلام وأفكاره ومثله وسلوكه الواقعى ، تشمل الدنيا والآخرة والأرض والسماء والحاكم والمحكوم والرجل والمرأة والأسرة والمجتمع ، لكى يصبح جزئيات مبعثرة لا رابط بينها ولا دلالة فيها ، كالرقعة الشائهة فى نسيج غير متناسق الأجزاء ؟

كيف نبتت تلك الأفكار العجيبة التى تقسم الإسلام مشاعر من ناحية وسلوكا عمليا من ناحية أخرى ، ثم تفصل بين هذه وتلك ، وتتصور أن المشاعر وحدها يمكن أن تكون إسلاما بمعزل عن السلوك ؟!

كيف دار فى أخلاد المسلمين أنهم يستطيعون أن يستوردوا اقتصادياتهم من أى نظام على وجه الأرض غير إسلامى ، ويستوردوا أصول مجتمعهم وقواعده من أية فكرة على وجه الأرض غير إسلامية ، ويستوردوا تقاليدهم من أى مجتمع على وجه الأرض غير مسلم ، ثم يظلوا مع ذلك مسلمين ؟ !

كيف أمكن أن يتصور المسلم أنه يستطيع أن يخالف تعاليم ربه فى كل شىء ، ويخون أماناته كلها ، فيغش ويكذب ويخون ويخدع ، ويتجاوز المتاع المباح إلى المتعة المحرمة ، ويقبل الذل والمهانة

حرصاً على هذا المتاع ، ويخلى نفسه من تبعة إقامة المجتمع المسلم سواء بسلوكه الذاتى أو بالدعوة إلى ذلك المجتمع ، ويشارك بذلك كله فى إقامة مجتمع غير مسلم ، قائم على الظلم والانحراف والمعصية . . ثم يتصور بعد ذلك أن بضع ركعات فى النهار — مخلصة أو غير مخلصة — يمكن أن تسقط عنه تبعاته أمام الله وتسلكه فى عداد المسلمين ؟ !

كيف أمكن أن تتصور المسلمة أنها تستطيع أن تخالف تعاليم ربها وتخون أماناته : فتغش وتكذب وتحقد وتغتاب . . وتخرج عارية تعرض فتنتها فى الطريق لكل عين نهمة وجسد شهوان ، وتخلى نفسها من تبعة إقامة المجتمع المسلم ، سواء بالسلوك المستقيم فى ذات نفسها ، أو بتربية أبنائها عليه ، أو بالدعوة إلى ذلك المجتمع . . وتشارك بذلك كله فى إقامة مجتمع غير مسلم قائم على الظلم والانحراف والمعصية . . ثم يدور فى خلدها بعد ذلك أن « النية الطيبة » فى داخل قلبها يمكن أن تسقط عنها تبعاتها أمام الله وتسلكها فى عداد المسلمات ؟ !

من أين أتت تلك الأفكار الغريبة التى تقول : ما للدين ونظام المجتمع ؟ ما للدين والاقتصاد ؟ ما للدين وعلاقات الفرد بالمجتمع وبالدولة ؟ ما للدين والسلوك العملى فى واقع الحياة ؟ ما للدين والتقاليد ؟ ما للدين والملبس — وخاصة ملابس المرأة ؟ ما للدين والفن ؟ ما للدين والصحافة والإذاعة والسينما والتلفزيون ؟

وباختصار . . ما للدين والحياة ؟ ما الدين والواقع الذى يعيشه البشر على الأرض ؟ !

لا شك أن هناك أسبابا كثيرة لهذا « الانحسار » الذى يعانيه الإسلام فى نفوس المسلمين .

فلم يكن كذلك المجتمع المسلم حين كان يمارس حقيقة الإسلام.

بل لم يكن كذلك المجتمع المسلم إلى عهد قريب — مع كل ما أصابه من فساد خلال القرون — إلى ما قبل الحملة الفرنسية على وجه التحديد .

لقد بدأت الفُرقة بين مثل الدين والسلوك الواقعى مبكرة فى تاريخ الإسلام . . من عهد الأمويين مثلا . . ولكنها كانت فرقة لا تخل بقواعد المجتمع الإسلامى فى مجموعه. كانت الحكومة فى العاصمة هى التى تفسد — فساداً جزئيا — فى سياسة الحكم والمال . ولكن المجتمع فى غير العاصمة ظل إلى حد كبير يمارس أصول الإسلام وقواعده ، تحكم حياته المفاهيم الإسلامية فى الكليات والجزئيات . والأهم من ذلك له أن نظام المجتمع كان يقوم على الإسلام ابتداء ، ويستمد قوانينه ا من شريعة الإسلام ولا يستمدها من أى مصدر سواه .

ثم اتسعت هذه الفرقة حين حكم الأتراك . . .

ومع ذلك فقد ظل كثير من أمور المجتمع ومفاهيمه إسلامية

خالصة ، وكذلك سلوكه العملى وأخلاقه ومعاملاته وتصوراته وأفكاره .

حتى كان الغزو الصليبى الأخير فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وامتداده فى القرن العشرين .

وعند ذلك حدث اختلاف كبير فى المجتمع المسلم .. واختلال كبير ..

وهذا الكتيب الصغير محاولة — سريعة — لتتبع هذا الخط الذى أدى إلى انحسار المفهوم الإسلامى الضخم الشامل ، لكى يصبح جزئيات مبعثرة لا رابط لها ولا دلالة فيها .. ولكى يصبح مجرد عبادات — مخلصة أو غير مخلصة — يحسب أصحابها أنها الإسلام كله ، وأنهم ملاقو ربهم بها وقد رضى عنهم ورضوا عنه . . حتى وهو يقول لهم فى كتابه العزيز إن ذلك ليس هو الإسلام كما أراده الله !

فإذا عرفنا كيف نبع هذا الانحراف وامتد .. فلعلنا أن نصحو إلى مافيه من كيد . . ولعلنا أن نفىء إلى الله وإلى أنفسنا . .

ونعود مسلمين . .

والله الموفق إلى ما يريد ؟

محمد قطب

مفهوم الإسلام

كيف فهم المسلمون الأوائل معنى الإسلام ؟

وكيف ينبغى لنا نحن أن نفهم معناه ؟

لاشك أن المسلمين الأوائل لم يفهموا من الإسلام ما نريد نحن أن نفهمه فى عصرنا الحاضر : أنه مجموعة من العبادات يؤديها الإنسان بمعزل عن السلوك العملى ، وأن الإنسان يستطيع أن يتجه إلى الله — مخلصا — فى أثناء العبادة ، ثم يتجه لغير الله فى أى أمر من أمور الحياة .

إنما الإسلام — كما فهمه الرسول صلى الله عليه وسلم وكما فهمه عنه أصحابه وأتباعه — هو إسلام النفس كلها لله . هو أن يكون كيان الإنسان كله متوجها إلى الله . هو أن تكون أفكار الإنسان ومشاعره وسلوكه العملى كلها محكومة بالدستور الذى أقره الله .

لم يفهم المسلمون من شهادة : أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، أنها كلمة تقال باللسان دون أن يكون لها مدلول مستقر فى أعماق النفس وفى واقع الحياة .

وإنما فهموا من شهادة : أن لا إله إلا الله ، أن الله هو المالك الوحيد لهذا الكون ، والمدبر الوحيد لكل ما يقع فيه من أحداث .

وأنه هو وحده الذى ينبغى أن يعبد ، وأن تتوجه إليه القلوب بالخشية والتقوى . وأنه هو وحده واهب الحياة ومقدر الموت ، وهو وحده الرزاق ذو القوة المتين . وأن التوجه إلى غيره بالعبادة أو الخشية ، والظن بأن أحداً غيره أو أية قوة من قوى السماوات والأرض تملك للناس نفعاً أو ضراً هو لون من الشرك يستعيذون منه بالله .

وفهموا فوق ذلك من معنى لا إله إلا الله أنه وحده الذى يملك ويحكم. هو الذى يشرّع للبشر ويضع لهم قوانين حياتهم ودستور معيشتهم، وليس أحد غيره أو أية قوة من قوى السماوات والأرض . وأن هذا الأمر قديم قدم البشرية كلها ، فقد نزل مع آدم منذ هبط آدم إلى الأرض: « قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم منى هدىً فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »[1] فهو أمر ملازم للبشرية فى تاريخها كله : أن يلتزموا هدى الله ويتصرفوا بمقتضاه . . وإلا فما هم بمسلمين .

كما فهموا من شهادة أن محمدا رسول الله ، أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الرسول المعتمد لتبليغ هذه الرسالة : هذا الهدى الذى يلتزم البشر بطاعته واتباعه ، وأنه هو المبلّغ عن ربه الذى تنبغى طاعته مع طاعة الله : « وما

(١) سورة البقرة [٣٧ ـ ٣٨] .

أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله »[1]، « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »[2] .

وأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو التطبيق العملى الحى لرسالة السماء ، فهو القدوة فى كل عمل وكل تصرف ، وهو قائد الجماعة المسلمة ومربيها، وأستاذها ومعلمها ، والنور الذى تستضىء به فى الظلمات .

* * *

ذلك كان المفهوم العام ـ أو الإجمالى ـ لشهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . المفهوم الذى كان الإنسان يعتبر مسلما بمجرد أن يستقر فى خلده ، لأنه فى حقيقته يمثل حقيقة الإسلام ، الكفيلة ـ وحدها ـ بمجرد استقرارها فى ضمير إنسان أن تحول حياته ، وتوجهه إلى الطريق السوىّ .. الطريق إلى الله .

وقد تفرعت عن هذا المفهوم الإجمالى ـ أو انبسطت معه بتوجيهات القرآن المفصلة وسلوك الرسول العملى ـ عدة مفاهيم أخرى ، كانت عميقة الغور فى نفوس المسلمين الأوائل ، تنعكس فى مشاعرهم وأفكارهم وتصرفاتهم ، وإن لم « يفلسفوها » كما نفلسفها نحن ، ويكتبوا فيها الكتب والمجلدات !

فهم المسلمون ـ بداهة ـ أن النية وحدها المضمرة فى القلب لا يمكن

---

(١) سورة آل عمران [٦٤] . (٢) سورة الحشر [٧] .

أن تــكون إسلاما ! وأنه ما لم تتحقق هذه النية فى أعمال محسوسة وسلوك واقعى ، فهى لاتساوى شيئاً فى ميزان الواقع وميزان الله . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى . ولـكن هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل »[1] .

ونحن ـ بعد أن تفلسفنا وتوسعنا فى المعرفة السيــكلوجية خاصة ـ ندرك صدق هذه البديهية وعمق دلالتها فى حياة الإنسان .

إن الإنسان كثيرا ما يخيل إليه أنه مقتنع بفكرة ما تمام الاقتناع ، وأنه ممتلئ بها إلى حد التشبع ، وأنه ليس فى حاجة إلى أن يحدث نفسه فيها أو يحدثه أحد غيره ، فهى مقررة فى أعماق نفسه ، مستقرة فيها ، لا شك فى أمرها ولا جدال .

ثم يكون هذا كله خداعا لا رصيد له من الواقع .. أو هو رصيد ضئيل لا يكفى لتحريك عجلة الحياة .

إنك وأنت جالس تحلم يخيل إليك أنك بدفعة صغيرة قد تستطيع أن تحرك الـكون !! ثم تحاول تحريك منضدة من مكانها فإذا هى تثقل عليك ، وإذا أنت محتاج ـ لـكى تزحزحها من مكانها ـ أن تزيد من قوتك الدافعة ، أو أن تنمى الرصيد الواقعى للرغبة الـكامنة فى نفسك ، حتى تتعادل مع المقاومة أولا ، ثم تأخذ فى الزيادة بعد ذلك . وبقدر

(١) عن أنس رضى الله عنه .

ما تزيد ، تكون الحركة المحسوسة فى عالم الواقع ؛ وتكون الحركة هى المقياس الحقيقى للرصيد .

وليست هذه حقيقة خاصة بعالم الإنسان وحده ، ولكنها حقيقة من حقائق الكون الأكبر ، وجزء من ناموس الوجود .

وقد أدرك كل مخترع لآلة متحركة ، أن القوة الكامنة وحدها لا تكفى . وأنها ينبغى أولا أن تتحول من قوة كامنة إلى قوة ظاهرة — أى تتحول من النية إلى العمل — ثم تكون بالقدر الذى يكفى لا لمعادلة المقاومة فحسب ، بل للزيادة عليها ، حتى تنتج الحركة الحقيقية المطلوبة فى واقع الحياة .

والحركة — قانون الوجود الأكبر — قائمة على هذه الحقيقة : تحويل القوة الكامنة إلى قوة ظاهرة ، وزيادة هذه القوة بحيث تتغلب على المقاومة ثم تتحرك فى الاتجاه المطلوب .

والنفس الإنسانية — وهى طاقة كونية — تسير على القانون ذاته ، فلا فرق فى طاقات الكون العظمى بين الماديات والمعنويات ! والمادة والطاقة شىء واحد فى عرف العلم الحديث !

النية وحدها لا تكفى .. لأنها قوة كامنة لم تتحول إلى حركة وعمل ، ولم تجرب نفسها أمام العقبات !

والآن فلننظر : ما المعوقات « الطبيعية » فى حياة الإنسان ، التى

لا تكفى « النية » لمقاومتها .. والتى ينبغى تحويل هذه النية إلى قوة حقيقية تعادلها أولا ، ثم تزيد عليها لتنتج الحركة الحقيقية فى واقع الحياة ؟!

معوقات كثيرة كامنة فى داخل النفس ، وموجودة كذلك فى واقع الحياة .

فمن داخل النفس : الإلف . . والعادة . . والتقليد . . والرغبة فى الحياة السهلة .. وكراهة الجهد .. وكراهة التعرض للتعب والأخطار ..

والعنوان العام الذى يجمعها هو «الهوى» أى الرغبة فى الاستجابة لما تهواه النفس من نزعات .

وفى الواقع الخارجى : العرف الاجتماعى الظالم والقوى المنحرفة التى قد توجد فى المجتمع وتسيطر عليه .

والعنوان العام الذى يجمعها هو « الطاغوت » أى كل قوة طغت عن حدها وتجاوزت خطها المستقيم .

الهوى من داخل النفس ، والطاغوت من خارجها ، هما «المقاومة» التى ينبغى أن تتحول النية إلى قوة حقيقية لتعادلها أولا ، ثم تزيد عليهما لتنتج الحركة المستقيمة المتمشية مع ناموس الكون وإرادة الله .

والهوى من داخل النفس ، والطاغوت من خارجها قوى «حقيقية» واقعة متحركة ذات ضغط وثقل واندفاع . ومن ثم فالنية وحدها

لاتكفى لمقاومتها ، فضلا عن التغلب عليها لإحداث الحركة المستقيمة فى الطريق الصحيح .

وتلك بديهية من بديهيات النفس وبديهيات الحياة ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدركها حق إدراكها وهو يقول : « ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى، ولكن هو ماوقر فى القلب وصدقه العمل » . كما كان يدركها أصحابه الأوائل وهم يجاهدون ويجهدون ليقيموا أنفسهم على النهج ، ويقيموا المجتمع على قواعد الإسلام .

ماقيمة النية الطيبة المخلصة فى واقع الحياة ؟!

أو — من جانب آخر — ماعيبها ؟

عيبها أنها خداع ! أنها تخيِّل إليك — وأنت تحلم — أنك بدفعة صغيرة قد تستطيع أن تحرك الكون !

ولكنك لم تجرب كم يحتاج من الجهد أن تحرك المنضدة من الأرض!

أنت مقتنع — بإخلاص — أنك نظيف القلب نقى السريرة مستقيم الطباع ، متصل بالله عامل بما يرضاه .

نعم . . ولكن حين يحتاج ذلك منك أن تمتنع عن رغبة من رغباتك ، أو تغير إلفك وعادتك ، أو تقاليد المجتمع الذى تعيش فيه ؟! حين يحتاج منك أن تقف فى وجه الناس تحولهم عن انحرافهم ، أو تدفعهم عن طريقك لكى لا يحرفوا خطواتك عن الطريق .. وينالك

من ذلك الأذى والألم والحرمان ؟ !

حين يحتاج منك أن تواجه الطاغوت — أى أنواع الطاغوت — وتتعرض حياتك للأخطار ؟ !

ما موقفك عندئذ ؟ وما الرصيد « الواقعى » للنية الطيبة الكامنة فى ضميرك ؟ !

حقا .. إنه لا قيمة لشئ ولا لعمل بدون هذه النية الكامنة فى النفس . ولكنْ هى وحدها ماقيمتها إذا لم تتحول إلى قوة ظاهرة تعمل فى واقع الحياة ؟

وهل كان تعنتا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول: « ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ، ولكن هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل»؟

أم إن الرسول كان واقعيا إلى أقصى درجات الواقعية ؟

إن الرصيد الحقيقى لهذه النية الطيبة ، هو مقدرتها على مقاومة الهوى من داخل النفس ، والطاغوت من خارجها . فإذا لم تتحول إلى المقاومة الواقعية أو لم تقدر عليها . . فهل تزيد على فقاعة جميلة المنظر تنفثئ عند أول لمسة ، وتضيع فى الفضاء ؟ !

من أجل ذلك لم يكتف الإسلام قط بالنية الطيبة ، ولم يَتَلَهّ بها عن العمل المثمر فى واقع الحياة .

ومن أجل ذلك لم يقل القرآن « الذين آمنوا » وإنما قال دائما :

« الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .. ما وقر فى القلب وصدقه العمل ..

وكان الإسلام بذلك دين الفطرة ، لأنه يتمشى مع فطرة الكون وناموس الوجود .

* * *

وكان ذلك — كما قلنا — بديهية من البديهيات التى فهمها المسلمون الأوائل عن الإسلام .

ومن إدراكهم لهذه البديهية فى المفهوم الإسلامى عملوا فى عالم الواقع لتحقيق الفكرة الإسلامية ، ولم يكتفوا بالأمانى الطيبة والمثل المعلقة فى الفضاء .

عملوا فى السلوك الفردى من ناحية ، وفى الواقع المادى للمجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية من ناحية أخرى .

لم يفهم أحد من المسلمين الأوائل انه يستطيع أن يكون مسلما — بالنية الطيبة — وهو يخالف الإسلام فى سلوكه الواقعى ، اعتمادا على أن الله « رب قلوب » وأنه مطلع على بواطن النفس ، مدرك للنوايا الطيبة المختفية وراء الأعمال !! وإنما أدركوا أن النية والعمل وجهان لأمر واحد لادلالة لأحدهما بدون الآخر . النية الطيبة وحدها بدون عمل هى تَمَنٍّ فارغ لا رصيد له من الواقع . والعمل وحده المنقطع عن النية الطيبة ، عمل ضائع فى السماء والأرض ، لأن الله لا يقبل من العمل

إلا ما أريد به وجهه خالصاً — وهذا هو معنى النية الطيبة — ومقاييس الأرض ذاتها تكشف الزيف ولو بعد حين !

لم يفهم أحد من المسلمين الأوائل أنه يستطيع أن يكون مسلما — بالنية الطيبة — وهو ينساق مع هواه الذاتى فى أمر من أمور الحياة ، إيثارا لمغنم قريب ، أو راحة متاحة ، أو ضنا بالنفس عن التعب والجهد والأخطار ! أو ينساق مع المجتمع — غير المسلم الذى كان يواجهه أولا — فى تقاليده أو انحرافه ، إيثارا لراحة البال، أو حرصا على المكانة والتقدير والاحترام فى ذلك المجتمع ، أو صونا للنفس من أذاه ، سواء كان هذا الأذى هو الغمز واللمز والتحقير والسخرية ، أو كان الأذى المادى الذى يؤذى البدن ويحرم من القوت أو يعرض الحياة نفسها للزوال .

إنما أدركوا أن الإسلام معناه تنفيذ الإسلام فى عالم الواقع . معناه أن السلوك الشخصى لكل منهم يجب أن يكون إسلاميا مهما ترتب على ذلك من الأخطار . وأن المجتمع الذى يتألف منهم يجب أن يكون إسلامياً كذلك ، مهما ترتب على ذلك من الأخطار .

وهنا حقيقة نذكرها . .

إن النفس لا تستقيم دائما على النهج ، ولا تقدر دائما على مواجهة الصعاب .

وإنها لتضعف أحيانا عن هذا وذاك : «وخلق الإنسان ضعيفا »[1]

والله يعلم من عباده ضعفهم ، ويقيل منهم عثرتهم ويقبل توبتهم .. ماداموا لا يصرون على العصيان : « والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون »[2] .

ولكن هناك فرقا بين هذه الحقيقة المقررة فى حياة البشرية ، وبين الظن بأن النية الطيبة وحدها تكفى للحياة وتكفى للإسلام ! . . فإنما قبل الله التوبة عن عباده وكتب على نفسه الرحمة ، للذين يجاهدون فى تحويل النية الطيبة إلى عمل واقعى مثمر ، ثم يسقطون من الجهد فى الطريق ، ولكنهم لا يصرون على سقطتهم ، إنما يقومون من عثرتهم ، يتوجهون إلى الله أن يقيلهم منها ، ويقبلهم فى عباده . . فيمن الله عليهم بالمغفرة والرضوان : «إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما »[3] .

* * *

ولم يفهم المسلمون الأوائل أنهم يستطيعون أن يكونوا مسلمين — بالنية الطيبة — ثم يتركوا المجتمع غير المسلم على ماهو عليه ، حتى ولو لم يجاروه فى انحرافه وينساقوا معه فى الانحراف .

---

(١) سورة النساء [٢٨] . (٢) سورة آل عمران [١٣٤ ــ ١٣٥] .
(٣) سورة الفرقان [٧٠]

وإنما فهموا أن معنى إسلامهم هو تحويل هذا المجتمع المنحرف إلى مجتمع مسلم يؤمن بالله ويلتزم بحدود ما أنزل الله .. وإلا فما هم بمسلمين!

وكان جهادهم كله هو حصيلة هذا الإدراك البديهى لمعنى الإسلام .

الإسلام حركة فى داخل النفس وفى حقيقة الواقع . . وما كان من الممكن أن تستقر هذه العقيدة فى نفوس المسلمين دون أن تتحول منها إلى واقع الحياة . وهذا هو الذى حدث فى المجتمع الأول الذى نشأ فيه الإسلام . فبمجرد أن استقرت حقيقة الإيمان فى نفوس المسلمين القلائل الذين رباهم الرسول صلى الله عليه وسلم وصنعهم على عينه ، أخذت الحركة تمتد من نفوسهم إلى المجتمع الخارجى المنحرف يريدون تقويمه ، وإلى النفوس الضالة يريدون هدايتها ، وإلى التقاليد المنتكسة يريدون رفعها إلى المستوى اللائق ببنى الإنسان ، مهتدين فى ذلك كله بهدى الله ورسوله ، والقدوة العملية المتمثلة فى تصرفات الرسول .

ونجحوا . . لأنهم أرادوا ، وعملوا لتحقيق إرادتهم فى عالم الواقع بعد أن حققوها فى عالم الضمير ، وعندئذ كانوا مسلمين !

* * *

وكان من البديهيات التى أدركها المسلمون الأوائل أن هذا المجتمع — المسلم — ينبغى أن يقوم على شريعة الله ، وأنه لا يمكن أن يكون مسلما بمعزل عن شريعة الله .

وعلى هذه البديهية قام المجتمع الإسلامى فترة طويلة جدا من الوقت، وكانت هذه سمته المتفردة التى يعرف بها ، ويتميز بها عن غيره من المجتمعات .

وقد أدرك هذه السمة المميزة فى تاريخ الإسلام — القائمة على تلك البديهية — كل باحث فى هذا التاريخ ، حتى المستشرقون ، الذين نصبوا أنفسهم — كما سيجئ فى فصول الكتاب — لهدم هذه الركيزة الكبرى ، ومحاولة فصل المجتمع عن الشريعة فى حياة المسلمين . حتى هؤلاء المستشرقون أنفسهم أدركوا قوة هذه السمة المميزة ، وعمقها فى بنية المجتمع الإسلامى وشدة رسوخها فيه .

يقول جب Gibb فى كتابه « الاتجاهات الإسلامية المعاصرة Modern Trends in Islam » :

« إن نوع المجتمع الذى تبنيه جماعة لنفسها يتوقف أساساً على معتقداتها حول كنه هذا الكون وغايته ، وحول مكان النفس الإنسانية فيه . وهذه نظرية مألوفة ألفة كافية ، ولا تفتأ منابر الكنيسة ترددها أسبوعا بعد أسبوع . ولكن ربما كان الإسلام هو الدين الوحيد الذى قصد فى ثبات وإلحاح إلى بناء مجتمع وفق هذا المبدأ ، وقد كانت أداته الرئيسية لتحقيق هذا الغرض هى الشريعة » .

ويقول جرونيباوم **Von Grunebaum** فى كتابه « الإسلام **Islam** » (الأقواس من عندنا للشرح) :

«إن الأمر الذى اقتضى عشرات السنين من المسيحيين الأوائل لكى يدركوه قد أدركه محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد سنوات قليلة : وهو أنه ما دامت إرادة الله قد اقتضت أن تمتد الحياة الدنيا فترة من الوقت طالت أو قصرت ، فإن جماعته (الجماعة الإسلامية) ينبغى أن تستقر فيها ، فى النقاء كامل مع تعاليم الوحى المنزل . ومن ثم أصبحت مهمة الجماعة أن تنشئ نمطاً شاملا للحياة فى ظل الله (أى فى ظل الوحى الإلهى) يشمل كل وجه من وجوه الوجود البشرى ، من أول التصور إلى الدفن (أى يشمل الأمور الفكرية والمعنوية — التصورية — كما يشمل الأمور السلوكية والمادية) ويلغى كل تمييز بين المقدس والدنيوى من مظاهر الحياة ، بجعل كل دقيقة من دقائق هذه الحياة متصلة بعضها ببعض برباط الدين ، ومحتاجة إلى مراسم (دينية) لتكملتها عند أداء أى عمل من الأعمال مهما كان نوعه . وبهذه الطريقة توحدت صورة السلوك إلى حد ما ، ولكن الحياة كلها حتى أدق تفصيلاتها أعطيت صورة سامية مستمدة من دلالتها الدينية . ولم تكن حياة الفرد وحده هى التى ينبغى أن تتحول إلى مجموعة متسقة من الأعمال التى يتطلبها الله منه ، بل إن المجتمع الإسلامى فى مجموعه كان ينبغى أن يحول

بالمثل : فصارت الدولة والجيش والخزانة (بيت المال) فى اصطلاح المؤمنين الأوائل دولة الله وجيش الله وخزانة (بيت مال) الله » .

ويقول ولفرد كانتول سميث Wilf ed Cantwell Smith فى كتابه «الإسلام فى التاريخ المعاصر Islam in Modern History »: فى المقدمة : « وإذ كانت السمة الأولى المميزة للعالم الإسلامى هى أنه «إسلامى» فإننا نقدم لبحثنا بمحاولة لتوضيح ما تعنيه هذه الحقيقة ».

ثم يقول فى ص ٢٦ ـ ٢٧ فى فصل «الإسلام والتاريخ»(الأقواس الشارحة من عندنا) .

« .. لقد لاحظ الباحثون (فى أمر هذا الدين) بروز وضع المجتمع فى الإسلام ... ومن البيّن أن المجتمع الإسلامى ذو تماسك ملحوظ ، وأن ولاء أعضائه وترابطهم عظيم القدر . وقد أدرك كثيرون أن الجماعة (الإسلامية) ليست مجموعة اجتماعية فحسب ، بل مجموعة دينية . وأن « الدين والدولة » أمر واحد إذا استخدمنا تعبيرنا الغربى غير المناسب . . إن المجتمع الإسلامى لا يترابط بعضه مع بعض — كالمجتمعات الأخرى — بمجموعة من الولاءات والتقاليد فحسب ، وبنظام متقن السبك من القيم والعقائد . ولا هو نتاج مثل أعلى رفيع فحسب ، بل إنه ينبض بالحيوية الناجمة عن اقتناع شخصى عميق ، اقتناع دينى له حرارته ودلالته فى نفس كل عضو من أعضائه . ونستطيع

أن نقول إن هذا المجتمع ـ هذه الجماعة ـ هى التعبير عن المثل الأعلى الدينى ، مستخدمين كلمة «دينى» بالمعنى الفردى الذى سبق شرحه. وإذا كانت عقيدة ما أو نظام ثيولوجى (قائم على أساس دينى) يمكن أن يكون تعبيرا عن الصورة العقلية للاعتقاد الشخصى — كما هو الشأن فى كثير من الحالات، وفى المسيحية بصفة خاصة — فإن النظام الاجتماعى بما يحويه من ألوان النشاط المختلفة هو التعبير — فى صورة عملية — عن الاعتقاد الشخصى للمسلم » .

ولا نحتاج أن نمضى طويلا فى اقتطاف النصوص أو تتبعها عند المستشرقين ، فقد أبرزوا كلهم هذه السمة الواضحة فى المفهوم الإسلامى والتاريخ الإسلامى : وهى أن المجتمع الإسلامى منبثق من العقيدة الإسلامية وقائم عليها ، بحيث لا يمكن فصل المجتمع عن العقيدة ، ممثلة فى سلوك عملى مستمد من التشريع الشامل الذى يأخذ كل منحى من مناحى الحياة.

وقد كانت تلك — كما أسلفنا — بديهية من بديهيات المفهوم الإسلامى عند المسلمين الأوائل ، فلا إسلام بغير مجتمع مسلم ، ولا إسلام بغير جهد واقعى — من كل فرد مسلم — لإقامة المجتمع على أسس مستمدة من شريعة الإسلام .

* * *

وكان من بديهيات هذا الإدراك كذلك أن الشريعة الإسلامية شىء

شامل ، يشمل كل نشاط الإنسان على وجه الأرض .

لم يفهموا أن التشريع الإسلامى يقتصر على العبادات وحدها ، أو على « الأحوال الشخصية ! » من زواج وطلاق وعتاق وإرث فحسب. وإنما فهموا أنه يشمل كذلك كل « المعاملات » التى يمكن أن تنشأ فى المجتمع ، مادام هذا المجتمع مسلما — أى قائما على أسس إسلامية — وما دام هذا المجتمع هو التعبير المباشر أو الانبثاق المباشر للفكرة الإسلامية فى عالم الواقع والعيان .

البيع والشراء والملك والرهن والإجارة والدين . . وكل المعاملات « المدنية » أو « الاقتصادية » بين الفرد والفرد أو بين الفرد والمجتمع أو بين الفرد والدولة ، يشرع لها الإسلام ، وتقوم على أساس من هذا التشريع . فيحل البيع ويحرم الربا ، ويحرم الاحتكار ، ويحرم الغصب والسلب والنهب والغش والجور ، ويحرم تكديس الأموال فى أيدى فئة من الأغنياء وحبسها عن بقية المجتمع ، وتؤدى أموال الزكاة وتنفقها الدولة فى مصارفها المنصوص عليها ، وتحدد موارد لبيت المال وقواعد لتوزيع المال بين الناس . وتقوم من ذلك كله قواعد للعدالة الاجتماعية يحددها كتاب الله وسنة رسوله ، وتلتزم بها الدولة لتكون دولة مسلمة.

وسياسة الحكم ، وكل ما يترتب عليها من علاقات الفرد بالدولة والدولة بالفرد ، تحددها نصوص القرآن وروحه ، وتحددها سنة رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، ثم تحددها الجماعة المسلمة من وحى هذه وتلك . فَيُنَص على مبدإ الشورى . وعلى طاعة الله وطاعة الرسول ، وطاعة أولى الأمر المستمدة من طاعتهم لله والرسول كما حددها الخليفة الأول أبو بكر فى صراحة حيث يقول : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » وهو قول مستمد من نص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »[1].

والتشريع الجنائى له نصوص محدودة واضحة تلتزم الجماعة المسلمة بتنفيذها ، فى حد القتل والزنا والسرقة والخمر والردة والإفساد فى الأرض.. وفيما دون الحدود . . ملتزمين كذلك بالشروح النظرية والعملية التى تحتويها السنة ، من مثل : « ادرءوا الحدود بالشبهات » وقبول الفرد المجرم الذى يوقع عليه الحد فردا عاملا فى المجتمع المسلم بمجرد توبته وإعلانه الإقلاع عن جريمته ، وعدم تعييره بها ولا قفل سبل العيش الشريفة أمامه من أجلها[2] ...

وتقاليد المجتمع وآداب السلوك وآداب الجنس تحددها كذلك تشريعات الإسلام وتوجيهاته ، فَيُنَص على أن السلام والإخاء والتعاون

---

(١) رواه أحمد والحاكم .

(٢) انظر بشأن العقوبات الإسلامية وملاءمتها للبشرية فى جميع عصورها ، وأخذها بمبدأ العدالة المطلقة فصل « الجريمة والعقاب » فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » وفصل « ادرءوا الحدود بالشبهات » فى كتاب « قبسات من الرسول » .

والمودة والبر هى سمات المجتمع المسلم المتصل بالله . وتُحَدِّد طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة فى المجتمع المسلم تحديداً صريحا واضحاً يشمل كل علاقات الجسد والروح ، ويُبَيِّن ما تلبسه المرأة ومالا تلبسه وما تبديه وما تخفيه . وتبين آداب الجنس بما يحفظ نظافة المجتمع فى ذات الوقت الذى ترضى فيه الفطرة السليمة وتشبع كل نوازع الحياة المستقيمة (١) .

وهكذا وهكذا تشمل الشريعة كل أمر من أمور الحياة .

* * *

وقد فهم المسلمون الأوائل من التشريع الإلهى أنه المصدر الدائم للحياة . وأنه لامصدر سواه — ولا يمكن أن يكون مصدر سواه — لتنظيم الحياة البشرية على الأرض .

وكان هذا بديهية من بديهيات الإيمان الجاد بالله . . وإلا فما معنى هذا الإيمان — حين يكون جاداً ومستقراً فى أعماق النفس — إذا لم يكن معناه التصديق بما يقوله الله للناس فى كتابه ، من أنه — سبحانه — أراد لهم الخير بما شرع لهم ، وأنه ألزمهم — إلزاماً جاداً — بتنفيذ ما شرع لهم ، وأنه يعتبرهم كافرين وظالمين وفاسقين إذا لم يحكموا بما أنزل الله ؟ !

(١) انظر بشأن المسألة الجنسية ونظرة الإسلام إليها وطريقته فى علاجها فصل « المشكلة الجنسية » فى كتاب الإنسان ، وكذلك كتاب « معركة التقاليد » بالتفصيل.

وما معنى الإيمان الجاد بالله إذا لم يصدق المسلم ما يقوله الله فى كتابه ، من أن كل شرع غير شرع الله هو « هوى » لطائفة من البشر ، منحرف عن الحق ، وأن شرع الله وحده هو الحق ، لأنه صادر عن الحق الذى لا يظلم ولا يتبع الأهواء ؟

وما معنى الإيمان الجاد بالله إذا دار فى خلد المسلم أن علم الله محدود ، وأن علم البشر وتجربتهم أفضل من علم الله وأصدق ، وأولى بالاتباع ؟ !

وما معنى الإيمان الجاد بالله إذا دار فى خلد المسلم أن هذا التشريع المفصل كله ، الموصول بناموس الكون وقوانين الوجود ، قد كان من أجل تلك الحفنة من العرب فى شبه الجزيرة ، وفى فترة محدودة من حياتهم ، هى الفترة القصيرة التى قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم ، والله سبحانه وتعالى يقول له فى كتابه إن هذا الدين للناس جميعاً: « للعالمين » : « إن هو إلا ذكر للعالمين »[1] « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا : إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[2] وإن القرآن — بكل ما يحوى من تشريعات وتوجيهات — هو الحق : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل »[3]

(١) سورة التكوير [٢٧] . (٢) سورة الحجرات [١٣] .
(٣) سورة الإسراء [١٠٥] .

وهذا الحق موصول بناموس الوجود الأكبر : « وخلق الله سماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون »[1] فهذا التشريع الحق ، الذى بمقتضاه تجزى كل نفس بما كسبت ، هو من نفس الحق الذى خلق الله به السماوات والأرض ، وليس إذن حقاً جزئيا من أجل تلك الحفنة من العرب فى شبه الجزيرة ، ولا موقوتاً بالفترة المحدودة التى قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم ، والله يقول للبشرية كافة — للعالمين — فى آخر ما نزل من القرآن : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً »[2] .

مامعنى الإيمان الجاد بالله إذا دار فى خلد المسلم شىء من ذلك كله ، أو ارتاب فى « الحق » الذى يحمله هذا الدين ، بكل ما فيه من تشريع وتوجيه ؟

إنه تناقض مع حقيقة الإيمان بالله . . لا يقدم عليه مسلم صحيح الإيمان صحيح التفكير .

وقد مرت أربعة عشر قرناً منذ نزل هذا التشريع ، ومرت بالبشرية فى أقطار الأرض تجارب شتى ، وتفلسف الناس وتعلموا ، ودرسوا فى العلوم السياسية ما درسوا ، فإذا الخلاصة التى انتهوا إليها

(١) سورة الجاثية [٢٢] . (٢) سورة المائدة [٣] .

من هذا العلم كله : أن كل تشريع أرضى هو تعبير عن « الطبقة » التى تملك وتحكم ، وأنه يمثل مصالحها هى على حساب بقية الطبقات . فالإقطاع مرة يحكم ، فيشرع لحساب طبقة الإقطاعيين ولحماية مصالحهم على حساب بقية «الشعب». ورأس المال مرة يحكم ، فيشرع لحساب طبقة الرأسماليين ولحماية مصالحهم على حساب العمال . ودكتاتورية البروليتاريا مرة تحكم ، فتشرع لحساب طبقة العمال (نظرياً على الأقل) على حساب بقية الآدميين . . ولم يحدث غير ذلك فى التاريخ .

وهذا هو الذى قرره الله فى كتابه ، من أن كل شرع غير شرع الله « هوى » يميل مع أصحابه حيث يميلون .

ثم . . لقد مرت أربعة عشر قرناً منذ نزل هذا التشريع ، ومرت بالبشرية فى أقطار الأرض تجارب شتى ، فإذا هذه التجارب ذاتها تثبت أن كل ما انحرف به الناس عن شريعة الله قد سبب لهم شقوة مريرة لا تكاد تطاق ، وهدد أمنهم وراحتهم ، ومزقهم شيعاً ، وأذاق بعضهم بأس بعض ، فضلا عن الشقاء العالمى الشامل الذى أنتج فى التاريخ المعاصر حربين متتاليتين فى ربع قرن ، والثالثة على الأبواب تهدد بأفظع دمار عرفه التاريخ . وفضلا عن تفتت الأسرة وتحلل الأخلاق وتمزق أعصاب الفرد بين شتى الاتجاهات ، مما تشهد به أمراض الجنون والاضطرابات النفسية والعصبية وضغط الدم وحوادث الانتحار التى

شهدت منها البشرية فى هذا الجيل ما لم تشهده مجتمعاً فى أجيال!

* * *

وقد أدرك المسلمون الأوائل مع ذلك — وإن لم يفلسفوا علمهم كما نفعل نحن فى هذه الأيام — أن فى الطبيعة البشرية عنصراً ثابتاً وعنصراً متغيراً على الدوام، وإن ارتبط العنصران ارتباطاً كاملا فى كيان الإنسان. وأدركوا كذلك أن تشريع الله الدائم للبشرية فى جميع عصورها وأجيالها، قد كفل العنصر الثابت والعنصر المتغير معاً، وربطهما ربطاً محكماً برباط الدين ورباط العقيدة فى الله.

« فى الإنسان عنصر ثابت مستمد من حقائق أزلية فى تكوينه لايغيرها تغير الأحوال والظروف:

«أنه صدر عن إرادة الله: « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »[1].

«وأن البشر جميعهم من نفس واحدة: « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة »[2].

« وأن من هذه النفس — أى من جنسها — قد خلق «الزوج» الذى يلتقى بها ويوائمها: « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها

(١) سورة البقرة [٣٠]　　(٢) سورة النساء [١]

زوجها[1] » « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة »[2] .

«وأن من هذه النفس وزوجها انبث الخلق كلهم والشعوب : « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء[3] » . « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم[4] » .

«وقد ترتب على هذه الحقائق الأزلية حقائق أخرى فصارت مثلها دائمة لاتتغير :

«ترتب عليها أن يحس الخلق — بفطرتهم مادامت سليمة — يحسوا بعظمة الله بالقياس إلى ضآلتهم فيعبدوه ، ويستمدوا منه العون فى الحياة

«وترتب عليها أن يحس الزوجان — اللذان خلقهما الله من نفس واحدة — بحنين والتصاق بعضهما ببعض ، وأن وجودهما لايتكامل إلا متحدين متوادين متراحين .

« وترتب عليها أن يحس الناس — حين تصفو سريرتهم وتنظف نفوسهم — بالأخوة فى الإنسانية ، إذ هم من نفس واحدة ذات رحم مع الجميع ، فيتعاونوا ويتشاركوا فى الخير .

« تلك عناصر دائمة لأنها ترتكز على أسس دائمة .

---

(١) سورة النساء [١] (٢) سورة الروم [٢١]
(٣) سورة النساء [١] (٤) سورة الحجرات [١٣]

«وثمت عناصر أخرى تجدّ كل يوم ، نتيجة تطور المعلومات البشرية، والتفاعل الدائم بين العقل والكون ، يحاول أن يتعرف أسراره ، ويستكنه كنهه ، ويستخرج كنوزه ، ويسخرها لمنفعته ، فتقوم أوضاع جديدة ، وينتقل الناس من بداوة إلى حضارة ، ومن زرع إلى صناعة ، ومن صناعة إلى . . ؟

«والإسلام دين الفطرة ، يجارى الفطرة البشرية فى جانبيها جميعا ،

«الجانب الأول يعطيه شرائع ثابتة . والجانب الآخر يعطيه أسسا ثابتة ، ثم يترك له مجال التطور الدائم فى إطار تلك الأسس الثابتة ، متمشيا فى ذلك مع فطرة الكون وفطرة الحياة .

«الجانب الأول يعطيه العقيدة . والعقيدة فى الله واحدة لاتتغير ، لأن الأساس الذى تقوم عليه ثابت لايتغير .

«وإلى جانب العقيدة يعطيه كذلك تشريعات الزواج والطلاق والحدود وتشريعات مدنية ودولية مختلفة .

«الزواج والطلاق — أو العلاقة بين الرجل والمرأة عامة — عنصر ثابت له تشريع ثابت ، لأنه يرتكز على أسس لاتتغير . هى الرجل من جهة ، والمرأة من جهة ، والعلاقة الشديدة التى تجذب كلا منهما للآخر وتشده إليه .

«والحياة تتغير ظروفها : المجتمع يتغير ، والاقتصاد يتغير ، ونظم

التعليم تتغير . والسياسة تتغير . ولكن ذلك لايغير شيئا من الحقيقة الثابتة التي تحكمها الفطرة بفسيولوجيتها وبيولوجيتها ، وغددها وكيماوياتها ، وهي أن الرجل رجل والمرأة إمرأة . ولاغنى لأحدهما عن الآخر ولا انفصال ولا استقلال[1]

« والحدود — أى العقوبات المفروضة على الجرائم — عنصر ثابت كذلك لأنه يرتكز على شيء ثابت : هو علاقة الإنسان بأخيه الإنسان — أو علاقة الفرد بالمجتمع — وحرمة كل إنسان التي لايجوز أن يعتدى عليها الآخرون .

« والحياة تتغير ظروفها : ارتباطات العمل تتغير . وعلاقات الإنتاج تتغير . وعلاقات الإنسان « بالآلة » تتغير . والنظم السياسية تتغير . ولكن ذلك لا يغير شيئاً من الحقيقة الثابتة التي تحكمها وقائع التاريخ البشرى . وهي أن الناس كلهم من نفس واحدة ، وعلاقة الرحم تربط الجميع »[2] .

---

(١) في كتاب « شبهات حول الإسلام » في فصل « الإسلام والمرأة » بحث تفصيلي لعلاقة الرجل والمرأة وطبيعتها في الإسلام ، وقد بينت هناك كيف عالج الإسلام الأمر في عدالة كاملة ، وكيف أن « التطور » لايضيف شيئا لهذه العدالة ولا يتعارض معها . أما التطور بمعنى الفساد الخلقي أو بمعنى المساواة الآلية بين المرأة والرجل ، فقد كانت له ظروف محلية في أوربا — شرحتها هناك — وليس « قيمة » حقيقية من القيم الإنسانية .

(٢) تقول الشيوعية إن هذه العلاقات كلها لاوجود لها إلا حيث توجد الملكية=

« وكذلك بعض التشريعات المدنية لها صفة الثبوت كالبيع والإجارة والرهن والدين والوكالة . . الخ . فكانت لها تشريعات ثابتة . ومثلها التشريعات الدولية التى تحكم علاقات الدول فى السلم والحرب .

« أما الجانب المتطور من الحياة البشرية ، وهو فى الوقت ذاته، متصل بالجانب الثابت ، فهوسياسة الحكم وسياسة المال ، و « شكل » المجتمع أوشكل البيئة من بدوية إلى زراعية إلى تجارية إلى صناعية . . الخ

« وتلك أمور كما قلنا تتطور بتطور العقل البشرى وتفاعله مع الكون ، ولكنها فى تطورها لاتنفصل عن الأصل الثابت ، ولا يمكن أن تنفصل ، بحكم وحدة الإنسان وترابطه ، واستحالة تجزئته وتقطيعه ، وفصل بعضه عن بعض .

« وفى هذه الأمور كان الإسلام حكيما غاية الحكمة ، مسايراً للفطرة ملبياً لحاجتها ، فوضع الخطوط العريضة ولم يضع التفصيلات . أو وضع « الإطار » الذى يريد للبشرية أن تتطور فى حدوده ، وترك لكل جيل من الأجيال المتعاقبة أن يضع «الصورة» التى تناسبه وتعجبه ، وتتفق مع مزاجه وظروفه المادية ومبلغه من العلم والإنتاج . بشرط

= الفردية . وحيث تلغى الملكية الفردية تزول هذه التشريعات . وهذا حق. ولكن الشيوعية ذاتها قد بدأت تبيح الملكية الفردية من جديد . والبقية تأتى !

واحد . هو أن تـكون الصورة على قدر الإطار ، لا أكبر منه فيتحطم ، ولا أصغر منه فيبدو حولها الفراغ .

« فى سياسة الحـكم وضع أساسين : العدل والشورى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحـكموا بالعدل »[1] « وأمرهم شورى بينهم »[2]

« ثم لم يحدد طريق الشورى . وهل يـكون مجلس واحد أو مجلسان . وهل ينتخب المجلس أو يعين . وهل يـكون التمثيل شخصياً أو مهنياً . . الخ . . الخ . . وترك ذلك للتجارب البشرية واجتهادها فى التطبيق .

« وفى سياسة المال وضع مجموعة من الأسس ذات طابع واحد يجمعها فى النهاية : هو ضرورة اشتراك الناس فى الخير ، بحيث لا يـكون منه محروم .

« قرر القرآن أن المال فى الأصل مال الله ، وهو أعطاه للجماعة : « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلـكم مستخلفين فيه »[3] . « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم »[4]

« وقرر أن الجماعة هى صاحبة الحق الأول فيه ، وأن الفرد « موظف » فيه يستحقه بحسن قيامه عليه ، فإذا لم يحسن القيام

(١) سورة النساء [٥٨] . (٢) سورة الشورى [٣٨] .
(٣) سورة الحديد [٧] . (٤) سورة النور [٢٣] .

عليه عاد إلى الجماعة صاحبة الحق الأول فيه : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً »[1].

«وقرر أن الله يكره حبسه فى يد فئة قليلة من الناس تتداوله فيما بينها ويحرم فيه مجموع الشعب : « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم »[2].

« وقرر فريضة الزكاة على الأموال حقا معلوما للفقراء ، تأخذه لهم الدولة وتعطيه لهم من بيت المال : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها . . . »[3].

« والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار »[4].

ويقول : « لأن يمنح أحدكم أخاه (أرضه) خير له من أن يأخذ خرجاً معلوما »[5] .

«وعمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: «لولا آخر المسلمين مافتحت قرية إلا قسمتها بين أهلها كما قسم النبى صلى الله عليه وسلم خيبر » [6].

«ثم لم يحدد طريقة اشتراك الناس فى مال الله الذى أعطاه للجماعة. وهل تكون بتأميم المرافق العامة . أم تكون بإشراك العمال فى رأس

---

(١) سورة النساء [٥] .
(٢) سورة الحشر [٧]
(٣) سورة التوبة [٦٠]
(٤) ذكره صاحب مصابيح السنة فى الحسان.
(٥) رواه البخارى .
(٦) رواه البخارى .

المال ، أم تكون بإعطائهم الأجور التى تكفل حاجاتهم الضرورية التى بينها الرسول فى حديثه : « من ولى لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليست له زوجة فليتخذ زوجة ، أو ليس له خادم فليتخذ خادما ، أو ليست له دابة فليتخذ دابة »[1] .

«لم يحدد صورة معينة من هذه الصور ، وترك الأجيال المتعاقبة تفكر لنفسها فى الصورة التى تناسبها ، وتتلاءم مع إمكانياتها . ولم يضع — فى سياسة المال أو سياسة الحكم — تفصيلات ثابتة جامدة ، لكى لا تصطدم بالنمو المطرد فى أحوال الجماعة ، والتطور المستمر فيها . ولكنه مع ذلك لم يدع هذه الأمور تفلت من الأصول الثابتة . ولم يدعها للناس يتصرفون فيها بلا دليل ، بحجة أنهم أعلم بأمور « دنياهم » ! فقد كان هذا التصرف الحر — فى أوربا ، وفى خارج الإطار الإسلامى عامة — شناعة بشعة يندى لها جبين الإنسانية « المتطورة » ! كان الإقطاع فى أوربا ثم كانت الرأسمالية بكل ما فيهما من مظالم غنية عن الوصف . وكلاهما حرام فى نظر الإسلام ، فهما يجعلان المال — سواء فى صورة أرض أو رأسمال — دُولة بين الأغنياء وحدهم ، ويحرم منه بقية الشعب. ثم كان الخلاص منهما هو الشيوعية — أى العبودية المطلقة للدولة ، والدكتاتورية المطلقة على الأفراد !

(١) رواه أحمد وأبو داود .

« والإسلام – كلمة الله لجميع البشر على الأرض ولجميع الأجيال – لم يكن ليترك الناس لمثل هذا « التطور » الذى يرسفون فيه فى الأغلال ، وإنما يأخذ بيدهم دائماً ويرشدهم ، حتى وهو يترك لهم حرية النمو وحرية التكيّف مع ما يجدّ من الأوضاع ، لكيلا يشردوا عن الطريق ، ولكى يحتفظوا بتحررهم الوجدانى الدائم فى جميع الأوضاع وجميع الأحوال »[1] .

وقد أدرك المسلمون الأوائل ذلك كله ، وإن لم يفلسفوه كما نصنع نحن ، فكان فقههم كله فى الأمور الثابتة هو شرح النصوص وبيان حالات انطباقها مع المحافظة الكاملة عليها ، كما كان فقههم فى الأمور المتغيرة – مع المحافظة الدائمة على أصولها – هو قولة عمر بن عبد العزيز : « يجدّ للناس من الأقضية (من الأحكام) بقدر ما يجد لهم من القضايا » .

* * *

وأدرك المسلمون كذلك من مفهوم الإسلام أن الأرض والسماء حسبة واحدة !

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة ، فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها فله بذلك أجر »

« وأول ما يخطر على البال – من هذا الحديث – هو هذه العجيبة

---

(١) من فصل « أنتم أعلم بأمور دنياكم » فى كتاب « قبسات من الرسول » .

التى تتميز بها الفكرة الإسلامية : أن طريق الآخرة هو هو طريق الدنيا بلا اختلاف ولا افتراق !

« إنهما ليسا طريقين منفصلين : أحدهما للدنيا والآخر للآخرة ، وإنما هو طريق واحد يشمل هذه وتلك ، ويربط ما بين هذه وتلك .

« ليس هنالك طريق للآخرة اسمه العبادة . وطريق للدنيا اسمه العمل .

« وإنما هو طريق واحد أوله فى الدنيا وآخره فى الآخرة . وهو طريق لا يفترق فيه العمل عن العبادة ولا العبادة عن العمل . كلاهما شيء واحد فى نظر الإسلام . وكلاهما مختلطان ممتزجان . وكلاهما يسير جنباً إلى جنب فى هذا الطريق الواحد الذى لا طريق سواه .

« العمل إلى آخر لحظة من لحظات العمر . إلى آخر خطوة من خطوات الحياة . يغرس الفسيلة والقيامة تقوم هذه اللحظة . عن يقين !

« وتوكيد قيمة العمل ، وإبرازه ، والحض عليه ، فكرة واضحة شديدة الوضوح فى مفهوم الإسلام . ولكن الذى يلفت النظر هنا ليس تقدير قيمة العمل فحسب ، وإنما هو إبرازه على أنه الطريق إلى الآخرة الذى لا طريق سواه .

« وقد مرت على البشرية فترات طويلة فى الماضى والحاضر ، كانت تحس فيها بالفُرقة بين الطريقين . كانت تعتقد أن العمل للآخرة يقتضى الانقطاع عن الدنيا ، والعمل للدنيا يزحم وقت الآخرة .

« وكانت هذه الفرقة بين الدنيا والآخرة عميقة الجذور فى نفس البشرية ، لا تقف عند هذا المظهر وحده ، وإنما تتعداه إلى مفاهيم أخرى تتصل بالكيان البشرى فى مجموعه .

« فالدنيا والآخرة مفترقتان .

« والجسم والروح مفترقان .

« والمادى يفترق عن اللامادى .

« والفيزيقا — بلغة الفلاسفة — تفترق عن الميتافيزيقا .

« والحياة العملية تفترق عن الحياة المثالية أو عن مفاهيم الأخلاق .

« إلى آخر هذه التفرقات التى تنبع كلها من نقطة واحدة، هى التفرقة بين الدنيا والآخرة ، أو بين الأرض والسماء .

« . . . . .

« والكيان النفسى بحكم فطرته التى فطره الله عليها .. وحدة .

« وحدة تشمل الجسم والعقل والروح . تشمل « المادة » و « اللامادة » . تشمل شهوات الجسد ورغبات النفس وتأملات العقل وسبحات الروح . تشمل نزوات الحس الغايظة وتأملات الفكر الطليقة ورفرفات الروح الطائرة .

« ولا شك أن جزئيات هذا الكيان متعارضة ، وأن كلا منها جانح فى اتجاه .

« ذلك إذا تركت وشأنها ، ينبت كل نابت منها على هواه !

« ولكن العجيبة فى هذا الكيان البشرى ، عجيبة الفطرة التى فطره الله عليها ، أن هذا الشتات النافر المنتثر ، يمكن أن يجتمع ، يمكن أن يتوحد ، يمكن أن يترابط ، ثم يصبح — من عجب — فى وحدته تلك وترابطه ، أكبر قوة على الأرض ! ذلك حين تقبس الذرة الفانية من قوة الأزل الخالدة ، فتشتعل وتتوهج ، وتصبح طليقة كالنور .. تمتزج فيها المادة واللامادة فهما سواء .

« والطريق الأكبر لتوحيد هذا الشتات النافر المنتثر ، وربطه كله فى كيان ، هو توحيد الدنيا والآخرة فى طريق .

« عندئذ لاتتوزع الحياة عملا وعبادة منفصلين ، ولا تتوزع النفس جسما وروحا منفصلين . ولا تتوزع الأهداف عملية ونظرية ، أو واقعية ومثالية لا تلتقيان .

« حين يلتقى طريق الدنيا بطريق الآخرة ، وينطبقان فهما شىء واحد ، يحدث مثل هذا فى داخل النفس ، فتقترب الأهداف المتعارضة، ويلتقى الشتات المتناثر ، ثم ينطبق الجميع فهو شىء واحد . وتلتقى النفس المفردة — بكيانها الموحد — تلتقى بكيان الحياة الأكبر ، وقد توحدت أهدافه وارتبط شتاته ، فتتلاقى معه وتستريح إليه وتنسجم فى إطاره ، وتسبح فى فضائه كما يسبح الكوكب المفرد فى فضاء الكون ،

لا يصطدم بغيره من الأفلاك ، وإنما يربطها جميعاً قانون واحد شامل فسيح .

« والإسلام يصنع هذه العجيبة . ويصنعها في سهولة ويسر .

« يصنعها بتوحيد الدنيا والآخرة في نظام : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » . « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

«وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم الترجمة الكاملة الصادقة للفكرة الإسلامية . ومن ثم كانت الدنيا والآخرة في نفسه طريقاً واحداً و « حسبة » واحدة » [1] .

* * *

وأدرك المسلمون كذلك أن « العبادة » في المفهوم الإسلامي معنى شامل جداً ، يشمل كل نشاط الحياة :

« من أبرز سمات المنهج الإسلامي أنه منهج عبادة ، ولكن العبادة في هذا المنهج ليست مقصورة على مناسك التعبد المعروفة من صلاة وصيام وزكاة .. وإنما هي معنى أعمق من ذلك جداً .. إنها الصلة الدائمة بالله .

« هذه الصلة في الحقيقة هي منهج التربية كله . تتفرع منه جميع التفريعات وتعود في النهاية إليه .

---

(١) من كتاب « قبسات من الرسول » .

« والصلاة والصيام والزكاة والحج ، وسائر الشعائر التعبدية ، إن هي إلا مفاتيح . مجرد مفاتيح للعبادة ، أو « محطات » يقف عندها السائرون في الطريق يتزودون بالزاد . ولكن الطريق كله عبادة . وكل ما يقع فيه من نسك أو عمل ، أو فكر أو شعور ، فهو كذلك عبادة . . ما دامت وجهته إلى الله .

« والعبادة بهذا المعنى تشمل الحياة .

« إنها لا تقتصر على اللحظات القصيرة التي تشغلها مناسك التعبد ، وما كان هذا هو القصد من الآية الكريمة : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »[1] . وإلا فما قيمة لحظات عابرة في صفحة الكون ، لا تكاد تترك لها أثراً وتضيع في الفضاء ؟

« إنما قيمتها أن تكون منهج حياة يشمل كل الحياة . قيمتها أن تكون خطة سلوك وخطة عمل وخطة فكر وخطة شعور ، قائمة كلها على منهج واضح ، يتبين فيه — في كل لحظة — ما ينبغي ومالا ينبغي أن يكون .

« ومرد الأمور كلها في ذلك هو الله ، هو المرجع الذي يرجع إليه في كل أمر ، ودستوره هو الدستور الذي يستشار في كل لحظة . يستشار في داخل القلب وفي وعي العقل وفي واقع السلوك .

---

(١) سورة الذاريات [٥٦] .

» . . . .

« وهذه هى العبادة فى مفهوم الإسلام .

« ليس معناها أن يتزهد الإنسان ويتنسك ويترهبن .

« وليس معناها أن تستولى التقوى على قلبه فى السجود والركوع ، فإذا ختم صلاته هبت فى داخل نفسه نوازع الطمع والجشع والعدوان . أو تخاذل عن القيام بالأمانة . أو ضعف عن نصرة الحق . أو تواكل عن العمل المنتج فى عالم الحس .

« كلا ! فما هو إذن موصول القلب بالله . إنه « متسكع » فى « محطة العبادة » لكنه لا يسير فى الطريق .

« والعبادة هى السير فى الطريق ، مع التزود بين الحين والحين ؛ السير فى الطريق والقلب يحمل الشحنة الحية الواصلة ، التى تدفع للعمل . تدفع دائماً إلى الأمام .

» . . . .

« والإسلام صريح فى اعتبار العمل هو العبادة ، ما دام القلب يتجه فيه إلى الله : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم

إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون[1] » .

« هذا هو منهج العبادة الذى يرسمه الإسلام ويقيم عليه أسسه التربوية ، ويشترط فيه الصدق مع الله ، والتقوى لله ، أى الصلة الدائمة بالله[2] » .

* * *

وأدرك المسلمون أن الإسلام معناه الاستعلاء .

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »[1]

أنتم الأعلون . . إن كنتم مؤمنين . فالاستعلاء صفة المؤمنين . ولكن أداته محددة واضحة لا تحتمل لبسا ، ولا تختلط بغيرها من الأدوات : « إن كنتم مؤمنين » أداته هى الإيمان !

إن الاستعلاء ليس مصدره قوة مادية أو معنوية من قوى الأرض . ليس مصدره المال . ولا الإنتاج المادى . ولا العصبية القومية . ولا العصبية العنصرية . ولا أى معنى من هذه المعانى التى يستعلى بها الناس فى جاهلياتهم المتكررة على مدار التاريخ .

إنما الاستعلاء مصدره الإيمان . . وحده .

(١) سورة البقرة [١٧٧] .

(٢) مقتطفات من فصل « منهج العبادة» فى كتاب «منهج التربية الإسلامية » .

ولم يكن هذا خداعا من الله سبحانه لعباده المؤمنين !

وإنما كان تربية لهم على الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فالشخص المؤمن — المهتدى بهدى الله ، والمهتدى — من ثم — إلى ناموس الكون وناموس الحياة — هو فعلا شخص « أعلى » من بقية المخلوقات . « أعلى » لأنه يشرف على الكون من أفق أكبر وأضخم من آفاق البشر الذين لم يفتح الله عليهم بنعمة الإيمان. وفكرته عن الله والكون والحياة أكبر وأضخم من فكرتهم . وفكرته عن الإنسان خاصة ، وعن الحياة الإنسانية ، هى أوسع وأشمل فكرة يمكن أن تخطر على قلب إنسان .

ثم إن هذه الفكرة الواسعة الشاملة عن الإنسان والحياة والكون ، هى ذاتها التى تحقق لهذا الاستعلاء فى عالم الواقع ، رصيده من القوة المادية والمعنوية ، فإذا هو استعلاء متحقق فى عالم الواقع كتحققه فى عالم النفوس .

وقد أدرك المسلمون الأوائل هذه الحقيقة على أوسع مجالاتها وأعمقها. فقد كان كل فرد منهم يدخل الإيمان فى قلبه يحس من فوره أنه إنسان جديد أعلى من كل ما حوله من جاهليات الأرض .

ولم يكن ذلك — كما يبدو لأول وهلة — لأن الاهتداء إلى

فكرة التوحيد ، يكشف للنفس عن تفاهة الأوثان وتفاهة التعبد إليها فيبعث فى النفس الاستعلاء عليها . لقد كان هذا حقيقة ، ولكنه لم يكن كل الحقيقة فى أمر الاستعلاء .

فلم تكن الوثنية مجرد « عقيدة » يواجهها المسلم بفكره وضميره فيستعلى عليها .

وإنما كانت « قوة » مادية ومعنوية .. قوة تتمثل فى الرجال والمال والسلاح . . كما تتمثل فى النفوذ والسيطرة والقدرة على الأذى والقدرة على الحيلولة بين الهدى وبين الوصول إلى الناس .

وهذا كله هو الذى استعلى عليه المسلمون الأوائل وهم أفراد ضئيلو العدد ضئيلو القوة ، لا حول لهم ولا طول . وصمدوا للكيد كله حتى انتصروا عليه.

فلم يكن استعلاء الفكر والمشاعر وحده . ولكنه استعلاء له رصيد فى عالم الواقع يواجه القوة المادية والمعنوية ، المتمثلة فى باطل الجاهلية التى تقف فى طريق المؤمنين وتحاول تحطيمهم بكل سبيل .

ومرة أخرى استعلى المسلمون على جاهلية تفوقهم فى القوة المادية والمعنوية حين جابهوا الفرس والروم .

فحين واجه المسلمون الفرس والروم لم يستعلوا بعددهم — فقد كانوا قلة بالنسبة لهؤلاء — ولا بالمال فقد كانوا — بعد — أمة فقيرة تعيش على الكفاف ، ولا بالسلاح فقد كان أعداؤهم يفوقونهم لا بنوع السلاح

وحده ، ولكن كذلك بالتنظيم الحربى والتمرس بفنون القتال المنظم على نطاق واسع ، غير ما عهده العرب فى غاراتهم الصغيرة قبل الإسلام . ولا بعربيتهم — فقد كانوا فخورين بها حقاً ، ولكنها لم تدفعهم من قبل أبداً إلى مواجهة تلكما الإمبراطوريتين العتيدتين ، بل كانت بعض القبائل العربية تخدم نفوذهما ، وتعمل أجيرة لهما لتصد عنهما هجمات الأعراب . ولا بحضارتهم ، فقد كانت الإمبراطوريتان دون شك أعلى حضارة بما لا يقاس من سكان شبه الجزيرة فى جميع العصور !

وإنما استعلوا بشىء واحد : هو الإيمان . استعلوا بإحساسهم أنهم — وهم مؤمنون — أفضل من كل هذه الخلق ، مهما كان عددها وقوتها وعتادها وحضارتها ونظمها وقوانينها وتشريعاتها . . فكلها انحرافات جاهلية مادامت لا تهتدى بهدى الله ولا تتبع شريعة الله .

ثم كانت العجيبة التى علم الله أنها لا بد أن تحدث حين يستعلى الناس بالإيمان على طريقة الإسلام !

فقد سعت هذه القوة المستعلية بالإيمان ، إلى تحقيق ذاتها فى عالم الواقع — فى كل ميدان من ميادين القوة — فتعلمت العلم ، وتعلمت فنون الحرب ، وتزودت بأنواع السلاح ، وتعلمت الحضارة . وتحقق لها فى عالم الواقع أن كانت أكبر قوة فى تاريخ الأرض ، فاندفعت شرقاً وغرباً بسرعة مذهلة لا مثيل لها فى التاريخ ، واندفعت — مستعلية —

تنشر الهدى وتدك الباطل دكا ، متغلبة على جميع العوائق المرصودة فى الطريق .

وفى كل مرة انتصر فيها المسلمون ، لم يكن مصدر استعلائهم أنهم ذوو رجال أو مال أو جيوش أو علم أو حضارة . وإنما كان مصدر استعلائهم أنهم مؤمنون . أنهم على الحق . والجاهلية من حولهم على الباطل . . ثم بعد ذلك — بعد الانتصار — صارت لهم الرجال والمال والجيوش والعلم والحضارة . . وحققوا من استعلائهم الداخلى بالإيمان استعلاءهم الخارجى بكل أنواع القوة والسلطان .

* * *

وأدرك المسلمون كذلك من مفهوم الإسلام أن الإنسان قوة فاعلة فى هذه الأرض .

أدركوا ذلك من توجيهات القرآن وسنة الرسول ، كما أدركوه من « الواقع » الذى عاشوه بتوجيه الله والرسول .

فهموا من قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »[1] أن الإنسان هو خليفة الله فى الأرض ، المكلف بعمارتها وتنمية الحياة فيها بجهده وكدحه : « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه »[2] وأن الله قد سخر للإنسان — من أجل القيام بمهمة الخلافة هذه — كل ما فى السماوات والأرض :

(١) سورة البقرة [٣٠]　　　(٢) سورة الانشقاق [٦]

« وسخر لكم مافى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه »[1] ولكن عليه أن يسعى بكدحه الخاص لاستخلاص ما سخر له الله من أرزاق وطاقات : «هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »[2] .

كما فهموا من قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»[3] أن أحداث الحياة لا تحدث جزافاً . صحيح أن كل شىء يحدث بإرادة الله ، وأن لله علم مافى السماوات والأرض ، وأن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو . . ولكن إرادة الله العايا قد اقتضت تكريم الإنسان — خليفته على الأرض — بإعطائه هذا الدور الإيجابى فى الحياة ، وبجعل إرادة الله ماضية عن طريق إرادة الإنسان . وهكذا تصبح إرادة الإنسان — وأعماله — هى التى تصنع التاريخ وتصنع الأحداث . لأن الله — مع قدرته المطلقة سبحانه — لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولا يحدث لهم غير مايحدثونه هم بأنفسهم لأنفسهم .

كما فهموا كذلك من قوله تعالى : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس »[4] أن الفساد ليس قدراً غيبياً ينزل بالأرض وهى غافلة عن أسبابه ، وإنما ينزل بالأرض بما كسبت أيدى الناس .

(١) سورة الجاثية [١٣]
(٢) سورة الملك [١٥]
(٣) سورة الرعد[١١]
(٤) سورة الروم [٤١]

فالناس هم القوة الفاعلة فى حياة الأرض ، وحسبما يعملوا تكن نتيجة عملهم فى الخير أو الشر .

ومن هذه المفاهيم كلها التى استوحوها من القرآن ، واستوحوها من جهاد الرسول الواقعى فى مكافحة الشر ونشر الهدى ، ومن واقعهم الذى عاشوه فى مواجهة جاهليتهم الأولى فى شبه الجزيرة وبقية الجاهليات فى الأرض . . أدركوا أن عليهم هم أن يعملوا بأنفسهم فى واقع الأرض . وأن الدين الذى يؤمنون به ويؤمنون بأنه الخير كله ، لا يقوم بذاته ، ولا ينتشر من تلقاء نفسه — وإن كان الله قادراً على ذلك — إنما يقوم بمجهودهم هم ، وعلى قدر مجهودهم ، ويقوم بمحافظتهم هم عليه ، وعلى قدر محافظتهم . وأنهم إن وهنوا أو تهاونوا فى صغيرة أو كبيرة من أمر هذا الدين ، فسيصاب الدين بقدر ما يهنون أو يتهاونون . وأن عليهم من أجل ذلك أن يظلوا فى يقظة دائمة لذات أنفسهم وللمجتمع المسلم الذى يعيشون فيه وللعالم من حولهم . وإلا فلا نصر ولا قوة ولا استعلاء ولا سلطان . لأن هذا كله لا يتحقق إلا بالإيمان الصحيح .. وذلك هو معنى الإيمان . وهذا معنى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »[1] .

(١) سورة آل عمران [٢٠٠] .

يقول ولفرد كانتول سميث الذى سبق أن أشرنا إليه ، فى مقارنة طويلة معجِبة بين نظرة الهندوكى والمسيحى والمسلم والماركسى لفكرة التاريخ ، ص ٣٢ من كتابه « الإسلام فى التاريخ المعاصر » :

« يرى المسلم ، مثل الماركسى ، وعلى غير ما يرى الهندوكى ، أن ما يحدث هنا فى هذه الأرض ذو دلالة باقيه ولا مفر منها . إن بناء حياة الجماعة فى الأرض على أسس سليمة هو الأمر الحتمى الأسمى . ولا شك أن المحاولة الإسلامية بالنسبة لكل المحاولات التى بذلت لنشر العدالة بين الناس كانت وما تزال إلى هذه اللحظة أشدها جداً وأكثرها جهداً . وإلى ما قبل قيام الماركسية كانت كذلك أكبرها وأشدها طموحاً . ومع ذلك فهى تفترق عن الماركسية فى أن الإسلام يرى أن كل حدث دنيوى له مرجمان ، ويُنظر إليه فى ضوءين معاً . فكل حركة يتحركها إنسان تتوافق (مع غيرها) فى عالم الخلد وفى العالم الموقوت معاً. وخط السير المستمر للأمور الدنيوية هو مسرحية جماعية تعرض ما تنجزه الجماعة من عمل . وفى ذات الوقت هو مجموعة من الأعمال المفردة المتميزة بعضها عن بعض ، يُسأل كل فرد بمفرده يوم القيامة عن نصيبه الذاتى فيها . أى أن كل عمل له نتائج من نوع معين فى هذه الدنيا ، ونتائج من نوع آخر فى العالم الآخر . وبعبارة أخرى فإن

كل عمل ينبغى أن يوزن فى ذاته ، كما يوزن من حيث صلته بالتطور التاريخى .

« ويستطيع الميتافيزيقى أن يقول إن هذا اللون من الحكم (على الأعمال) أقرب إلى الحقيقة الموضوعية لهذا العالم الذى نعيش فيه، ولهذا الكائن (البشرى) الذى يتكون منه البشر ، وللحياة التى يتكون منها تاريخ معيشتنا ، من أية نظرة ذات جانب واحد تنكر وجود قيم خلقية أسمى من الواقع الأرضى المستمر فى الجريان . فالتاريخ ذو دلالة ، ذو معنى مطلق ، ولكن معناه لاينتهى فى ذاته . بل الأحرى أن هناك معايير ومقاييس ، أعلى من موكب الحوادث التى يتكون منها التاريخ ، وبهذه المعايير والمقاييس يمكن ، وينبغى ، الحكم على هذه الأحداث التاريخية ، وهى تُحكم بمقتضاها بالفعل (فى الفكرة الإسلامية) » .

* * *

كذلك كان مفهوم الإسلام فى نفوس المسلمين .

وكانت حصيلة هذا المفهوم بأصوله وتفريعاته سمات معينة اتسم بها المجتمع الإسلامى ، وسلوكا معينا اتخذه المسلمون ، تميزوا به عن المجتمعات الأخرى كلها من قبلهم ومن بعدهم ، كما سجل ذلك المؤرخون جميعاً ، يستوى فى ذلك المسلمون منهم ، والمستشرقون .

تميز هذا المجتمع بالطاعة لله وللرسول . طاعة جادة لا تتلكأ ولا ترتاب . .

وتظل الفروق الفردية بين الناس فى مدى طاعتهم قائمة . ويظل الضعف البشرى الذى يقعد بالنفس عن بلوغ المستوى السامق والاستواء عليه قائماً كذلك . ولكن هذا وذلك لا يغيران شيئاً من الحقيقة الواقعة التى تبلغ أن تكون سمة للمجتمع كله ، يسجلها من يعيشون فيها ومن يطلعون عليها من الخارج ، كما يسجلها الباحثون فى غضون التاريخ . . سمة الطاعة الجادة لله ولرسوله ، بلا تلكؤ ولا ارتياب .

لم يحدث — فى غير المجتمع الإسلامى — أن قام مجتمع بأسره يحاول تنفيذ أوامر الله ، ويحاول إقامة المجتمع كله على أساس تعليماته ، نتيجة الإيمان الجاد بها ، الإيمان الذى يرسخ فى أعماق النفس ، ويستقر فى أعماق الضمير .

كل فرد فى هذا المجتمع يحس — بطبيعة إسلامه — أنه مكلف. مكلف بتبعات معينة لا فكاك منها ، ولا محاولة للجدال فيها ، حتى حين تضعف عنها النفس، وتنزوى عن القيام بالأمانة ، فهو ضعف يقر به صاحبه ولا يتبجح ، ولا يقول إن حكمه هو فى الأمر خير أو أصح من حكم الله ورسوله .

كل فرد يحس أنه مكلف بطاعة الله وتنفيذ أوامر الله .

مكلف أن يكون هو فى ذات نفسه مسلماً ، منفذاً لتعاليم الإسلام.

مكلف أن يكون سلوكه الشخصى مطابقا للصورة التى يريدها الله ورسوله للفرد المسلم ، لا فى الكليات فحسب ، بل فى أدق التفصيلات ، حتى طريقة السلام ، حتى طريقة الجلوس والمشى ، حتى طريقة تنظيف الفم والأسنان .

ويحس — فى أعماق ضميره — أنه لا يوجد صغير وكبير فى هذه التكاليف . لا يوجد مهم وتافه . لا يوجد ضرورى وغير ضرورى . . إلا ما أباح الله ورسوله الخيار فيه بين الرخصة والعزيمة ، فهو عندئذ وما يستطيع . أما التكاليف المنصوص عليها فهى للطاعة والتنفيذ . التنفيذ الجاد المقترن بالإيمان بالله . والإيمان بأن الإنسان لا يكون مسلما إذا لم ينفذها بحذافيرها ، وبالصورة التى عينها الله ورسوله . يستوى فى ذلك سواك الأسنان والجهاد فى المعركة . حتى ليربط المسلمون بين هذه وتلك ، ويفسرون إبطاء النصر عليهم فى إحدى المعارك بأنهم قد أهملوا السواك ! فينبه بعضهم بعضاً إلى الواجب المتروك ليستحقوا نصر الله !

ذلك أن مصدر السلوك واحد فى الأمرين : الطاعة لله وللرسول .

ويحس كل فرد مسلم أن عليه واجبا فى ذات نفسه وواجبا فى المجتمع الذى يعيش فيه .

واجبه فى ذات نفسه — كما أسلفنا — أن يصنع من نفسه : من شعوره وتفكيره وسلوكه العملى جميعاً صورة مسلمة ، مطابقة — بقدر ما تطيق طبيعته — للصورة الإسلامية الصحيحة التى بينها القرآن وسنة الرسول . فيحب الناس ، ولا يحقد عليهم ، ولا يغتابهم ولا يلمزهم ، ولا يؤذيهم فى كرامتهم ، كما لا تمتد يده بالأذى إلى أموالهم وأعراضهم ودمائهم ، ويخلص لهمَ النصيحة والمودة والإخاء . ويرعى الله فى عمله فلا يغش ولا يخدع ولا يسلب ولا يغتصب . ولا يتقاعد عن العمل وهو قادر عليه . ويؤدى أماناته لله ، وهى أمانات شتى تبدأ بأمانة الإيمان بالله والاعتقاد بربوبيته والطاعة له ، وتتفرع عنها كل الأمانات الأخرى من عبادات ومعاملات .

وواجبه فى المجتمع الذى يعيش فيه أن يعينه ويشترك معه ويحمل نصيبه من التبعة فى إقامة هذا المجتمع على الأسس الإسلامية النظيفة القويمة . فلا يكفى أن يكون هو ذاته فى سلوكه صورة من الفرد المسلم . وإنما ينبغى — لكى يتم إسلامه ويصح — أن يسعى لأن يكون المجتمع كله هو الصورة الإسلامية . وأن يحتمل فى سبيل ذلك ما يكلفه إياه من الجهد والمشقة والجهاد .

أحس كل فرد مسلم وكل مسلمة أن هذا واجبهما فى ذات نفسهما

وفى مجتمعهما . لا فكاك ولا نكوص ولا تلكؤ ولا ارتياب

ومن هنا كان المجتمع الأول — فى مجموعه — هو تلك الصورة الوضيئة النظيفة . . النظيفة فى الخلق وفى السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والنشاط الفكرى والروحى والعملى والحربى . . وكل منحى من مناحى الحياة .

لم يحس المسلم أنه سيعبد ربه — فيما بينه وبين نفسه — ثم يكون سلوكه العملى كيف شاء أو كيف شاء أى مجتمع آخر غير مسلم . كما لم يحس أنه يستطيع أن يترك مجتمعه ينحرف عن سلوك الإسلام .

ولم تحس المسلمة أنها ستعبد ربها — فيما بينها وبين نفسها — ثم يكون سلوكها فى ملبسها وزينتها وطريقة تعاملها مع الرجل وطريقة تفكيرها وشعورها كيف شاءت ، أو كيف شاء أى مجتمع آخر غير مسلم . كما لم تحس أنها تستطيع أن تترك مجتمعها ينحرف عن سلوك الإسلام .

إنما أحس كلاهما أن واجب إسلامه يلقى عليه تبعة ضخمة فى ذات نفسه وفى ذات مجتمعه . تلزمه أن يكون فى يقظة دائمة لكل صغيرة وكبيرة يأتيها هو أو مجتمعه . يقظة يحس فيها أنه فى كل أمر من هذه

الأمور محاسب أمام الله ، وأن عليه أن يحاسب فيها نفسه قبل أن يحاسبه الله . . وبذلك كانوا مسلمين !

* * *

ثم كانت حصيلة هذا الإدراك لمفهوم الإسلام ، أن أحست تلك الجماعة المسلمة أنها — بطاعتها لله واتباعها لشريعته وأوامره — هي القوة العليا في هذه الأرض . هي القوة المسيطرة المهيمنة ، التي ينبغي أن تأخذ بزمام البشرية كلها وتقودها إلى الطريق القويم .

لم يدخل في هذا الإحساس أي تقدير أو مقارنة للقوى المادية أو المعنوية بين هذه الجماعة المسلمة وجماعات الأرض الأخرى التي لاتهتدي بهدى الله .

ولو دخل في حسابهم أي تقدير أو مقارنة بين عدد الرجال وقوة السلاح وقوة العلم وقوة الحضارة وقوة التنظيم . . إلى آخر تلك القوى المادية والمعنوية ، لنكص المسلمون على أعقابهم ، بل لما فكروا قط في التحرك ، بل لا نزووا في داخل أنفسهم مدحورين مهزومين . . يحسون بالضآلة ويحسون بالهوان !

وإنما دخل في حسابهم شيء واحد . هو الحقيقة التي تنبع منها جميع الحقائق . أنهم هم المؤمنون . هم الطائعون لله ورسوله . وإذن فهم

الأعاون . وكل قوى الأرض إزاءهم ضئيلة ضئيلة لا يقام لها حساب .

ثم كان هذا حقاً . . .

فبطاعتهم لله ورسوله أصبحوا حقاً هم القوة العليا فى هذه الأرض . القوة المسيطرة المهيمنة ، التى أخذت بزمام البشرية كلها وقادتها إلى الطريق القويم .

ولم يكن الفتح الحربى وحده هو حصيلة هذا الإحساس . وإن كان فى ذاته ظاهرة مذهلة فى التاريخ البشرى .

وإنما كان الإسلام « حركة » قوية مندفعة بكامل حيويتها فى كل اتجاه .

فالنظم والحضارات التى وجدها الإسلام فى طريقه ، سرعان ما استوعبها ، وأعطاها روحه ، فصارت نظماً وحضارة إسلامية . ثم بسطها الإسلام — بصورتها الإسلامية — فى كل مكان وطئته أقدام المسلمين .

و « العلم » الذى وجده الإسلام فى البلاد المفتوحة ، سرعان ماتبناه ، وتوفر عليه ، دراسة وبحثاً وتعميقاً وتوسعة ؛ ثم أعطاه طابعه الخاص فصارعلماً إسلامياً ، ثم بسطه الإسلام — بصورته الإسلامية — فى كل مكان وطئته أقدام المسلمين ، واستنار به لا المسلمون فحسب ، بل كل متعلم على ظهر الأرض .

يقول « جب » فى كتابه « الاتجاهات المعاصرة فى الإسلام » :

« أعتقد أنه من المتفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التى قام بها الباحثون المسلمون قد ساعدت على تقدم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسة ، وأنه عن طريق هذه الملاحظات وصل المنهج التجريبى إلى أوربا فى العصور الوسطى :

ويقول « بريفولت فى كتابه « بناء الإنسانية « Making of Humanity :

« لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث . . . ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة ، بل مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية . ولكن على الرغم من أنه ليس ثمت ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون ، وأهم ما تكون ، فى نشأة تلك الطاقة التى تكوّن ما للعالم الحديث من قوة متميزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره : أى فى العلوم الطبيعية وروح البحث العلمى » .

وغير هذا وذلك من تقاليد الحياة وأساليبها ، وقيمها ومبادئها ، نشرته هذه الجماعة المسلمة المؤمنة بالله ، الطائعة لأوامره ، وظل راسخاً

فى بنية البشرية حتّى بعد أن انحسر العالم الإسلامى وتخلى عن مهمته الأصيلة فى الهيمنة على البشرية وقيادتها فى الطريق القويم، مما قرره مؤرخو الغرب المنصفون أنفسهم حتّى وهم يكرهون الإسلام ، ويكيدون للإسلام !

ولكن الصورة الكاملة للمفهوم الإسلامى عند المسلمين الأوائل ، لن تتم فى أذهاننا ، ولن نتصورها على حقيقتها ، حتّى نرى إلى جانب هذه الصورة العامة ، صورة واقعية من الحياة الإسلامية كما تتبين فى نماذج من المجتمع المسلم .

نماذج من المجتمع المسلم

قلنا فى الفصل السابق إن المفاهيم العامة للإسلام لا يتم تصورها حتى نراها فى صورة واقعية من حياة المجتمع المسلم الذى عاش هذه المفاهيم بالفعل ، وأخذها أخذاً جاداً ، فانفعلت بها نفسه ، وحققها فى واقع سلوكه .

والمعتاد ـ وهو أمر طبيعى ـ حين تؤخذ نماذج للمجتمع المسلم ، أن تؤخذ هذه النماذج من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والصحابة البارزين الذين حققوا فى ذوات أنفسهم بطولات فذة ، خالدة فى تاريخ الإنسان وفى ضمير الكون .

وهو أمر طبيعى كما قلت . فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الأسوة والقدوة . وقد كانت كل دقيقة من دقائق حياته مبسوطة أمام المسلمين لتكون لهم النموذج الكامل الدائم الذى يرجعون إليه فى كل تصرفاتهم ، ويحاولون ـ بقدر ما يطيقون ـ أن يقبسوا منها ويقتدوا بها ، ويتأسوا بها فى الشدائد والصعاب .

والصحابة رضوان الله عليهم هم نماذج « بشرية » . . صحيح أنها نماذج ممتازة ، نادرة فى التاريخ البشرى ، ولكنهم ولاشك بشر تشربت

أرواحهم النور العلوى فارتفعت به ، وصارت إلى تلك النماذج العالية التى تشرف بها البشرية فى جميع أعصارها وجميع أحوالها . والتأسى بهم والاقتداء بأعمالهم وأفكارهم ومشاعرهم محاولة مفتوحة أمام المسلمين فى كل جيل ، يصلون منها إلى ما تقدر نفوسهم عليه .

فأخذ النماذج من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم ، أمر طبيعى حين يراد إعطاء صورة بارزة مكتملة للمجتمع المسلم ، خالدة على مدار التاريخ .

ولكنا هنا فى هذا الكتاب خاصة ، الذى نتحدث فيه عن الإسلام «الشعبى» إن صح التعبير، الإسلام المطلوب من كل فرد ، والمفروض فيه أن يقدر عليه كل فرد ، مع عمل حساب للفروق الفردية بين الناس فى الطاقات والاستعدادات ، وعمل حساب للضعف البشرى «الطبيعى» الذى يقعد بالإنسان عن بلوغ القمة التى تقدر عليها طاقاته واستعداداته ، أو يقعد به عن الاستواء على هذه القمة حتى إذا وصل إليها أحياناً . . .

هنا فى هذا الكتاب خاصة لا نريد أن نقصر نماذجنا على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وإن كان قدوة المسلمين فى كل وقت وكل جيل ، ولا على الصحابة رضوان الله عليهم وإن كانوا دون شك من عمل الإسلام ، ونتيجة من نتائجه . بل لا نريد أن نقصر هذه النماذج على فترات البطولة الصاعدة فى حياة الأفراد العاديين ، التى ترتفع بهم

على ذواتهم ، وتجعل منهم أبطالا خالدين فى ضمير السكون ، ولو لم يسجل التاريخ العادى منهم إلا مجرد أسماء . . أو أشخاصاً بلا أسماء !

إنما نريد أن نعرض — إلى جانب هذا كله — نماذج من حالات « الضعف البشرى » فى المجتمع المسلم ، حالات الهبوط عن القمة السامقة المطلوبة أو المرغوبة ، لنعطى صورة واقعية لهذا المجتمع فى جميع صوره وحالاته من جهة ، وليعرف الناس من جهة أخرى أن الإسلام نظام واقعى فى مواجهته للنفس البشرية والواقع البشرى ، وأنه لا يحملهم فوق طاقاتهم ، ولا يفترض فيهم الرفعة الدائمة التى لا تسقط أبداً ولا تهبط أبداً ، ولا يطلب منهم أن يلغوا بشريتهم ليكونوا مسلمين ، وإنما يعاملهم على أنهم بشر ، ويتطلب منهم ما يقدر عليه البشر . ثم ليرى الناس من جهة ثالثة كيف كان الإسلام فى المجتمع المسلم يواجه لحظات الضعف العارضة ، التى تعرض للناس فى حياتهم بسبب ثقلة الأرض وجواذبها ، وكيف كان يسعى إلى علاجها لترتفع النفوس من جديد ، وتصل إلى المستوى المطلوب ثم إلى المستوى المرغوب.

والآن نعرض هذه النماذج كما تعرض لنا بغير ترتيب معين مقصود :

* * *

« جاء أعرابى يوماً يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم شيئاً فأعطاه . ثم قال له : أحسنت إليك ؟ قال الأعرابى : لا . ولا أجملت !

فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كُفُّوا . ثم دخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً ، ثم قال : أحسنت إليك ؟ قال : نعم . فجزاك الله من أهل ومن عشيرة خيراً . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك ، فإذا أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي ، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال : نعم . فلما كان الغداة جاء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن هذا الأعرابي قال ما قال ، فزدناه ، فزعم أنه رضي . أكذلك ؟ فقال الأعرابي : نعم . فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال صلى الله عليه وسلم : إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه ، فتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين ناقتي ، فإني أرفق بها وأعلم . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها هوناً هونا ، حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها . وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار »

* * *

أخرج أحمد والبخاري ومسلم من طريق الزهري ، قال أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب

ابن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمى — قال : سمعت كعب ابن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك . . . وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ؛ والله ماجمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدداً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم بوجههم الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير لايجمعهم كتاب حافظ (أى سجل تسجل فيه أسماؤهم) .

« قال كعب رضى الله عنه : فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه (من كثرة عددهم) مالم ينزل فيه وحى من الله عز وجل . وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصعو ، فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولا أقضى شيئاً ، فأقول لنفسى : أنا قادر على ذلك إن أردت . فلم يزل ذلك يتهادى

بِ حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليت أنى فعلت ؛ ثم لم يقدر لى ذلك فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزننى أنى لا أرى لى أسوة إلا رجلا مغموصاً عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله ، ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى عطفيه (أى الكسل والترف) فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يارسول الله ما علمنا عنه إلا خيراً ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« قال كعب بن مالك : فلما بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى فطفقت أتذكر الكذب ، وأقول : بماذا أخرج من سخطه غداً ؟ وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى . فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً زاح عنى الباطل حتى عرفت أنى لم أنج منه بشىء أبداً ، فأجمعت صدقه ؛ وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس . فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له . وكانوا بضعا وثمانين رجلا . فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم .

ووكل سرائرهم إلى الله ، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لى : تعال . فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال لى : ما خلفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك (أى راحلتك) فقلت : يا رسول الله والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر . لقد أعطيت جدلا . ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عنى به ليوشكن الله أن يسخطك علىّ . و لئن حدثتك بحديث صدق تجد فيه على (تسخط على) وإنى لأرجو فيه عقبى من الله . والله ما كان لى عذر . والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك . فقال صلى الله عليه وسلم : « أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك » فقمت . وبادرنى رجال من بنى سلمة وأتبعونى فقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون . فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسى . ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا : نعم . لقيه معك رجلان قالا ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع وهلال

ابن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدوا بدرا ، لى فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لى .

« قال : ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس ـ أوقال : تغيّروا لنا — حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض فما هى الأرض التى كنت أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة . فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما . وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمنى أحد . وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة وأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىّ فإذا التفتّ نحوه أعرض عنى . حتى إذا طال ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة ـ وهو ابن عمى وأحب الناس إلىّ ـ فسلمت عليه . فوالله مارد علىّ السلام. فقلت له يا أبا قتادة أنشدك الله تعالى : هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدت فنشدته فسكت . فعدت فنشدته . قال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار .

« وبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس

يشيرون له إلىّ حتى جاء فدفع إلىّ كتابا من ملك غسان وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه : « أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة . فالحق بنا نواسك » . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء . فتيممت بها التنور فسجرتها . حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذ برسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : بل اعتزلها ولا تقربنها • وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك . فقلت لامرأتى : الحق بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر . فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله إن هلالاً شيخ ضائع وليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : « لا . ولكن لايقربنك » . فقالت : إنه والله مابه من حركة إلى شيء ، ووالله مازال يبكى من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا . فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه . فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أدرى مايقول إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب .

« قال : فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا . قال : ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت

من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله منا : قد ضاقت علىّ نفسى وضاقت علىّ الأرض بما رحبت، سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر . فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء الفرج . فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر . فذهب الناس يبشروننا وذهب قِبل صاحبى مبشرون ، وركض إلىّ رجل فرسا وسعى ساع من أسلم قبلى وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاء الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبىّ فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك غيرهما يومئذ . فاستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أؤم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقانى الناس فوجا بعد فوج يهنئوننى بالتوبة ويقولون : ليهنك توبة الله عليك . حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحوله الناس ، فقام إلىّ طلحة بن عبيد يهرول حتى صافحنى وهنأنى . والله ما قام إلىّ رجل من المهاجرين غيره . قال : فكان كعب رضى الله عنه لا ينساها لطلحة .

« قال كعب رضى الله عنه : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » . قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : « لا بل من عند الله » . وكان رسول الله صلى الله

عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه.
فلما جلست بين يديه قلت يارسول الله : إن من توبتى أن أنخلع من مالى
صدقة إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم . قال : « أمسك عليك
بعض مالك فهو خير لك » . فقلت : إنى أمسك سهمى الذى بخيبر .
وقلت : « يا رسول الله إنما أنجانى الله بالصدق . وإن من توبتى
أن لا أحدّث إلا صدقا ما بقيت » . والله ما أعلم أحداً من المسلمين
أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى
الله عليه وسلم أحسن مما أبلانى الله تعالى . والله ما تعمدت كلمة منذ قلت
ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا كذبا . وإنى لأرجو
أن يحفظنى الله فيما بقى » .

* * *

قال ابن اسحق فى حديثه عن غزوة بنى المصطلق سنة ست
على المريسيع (ماء لهم) : « فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك
الماء بعد الغزو ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له
من بنى غفار يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه
وسنان بن وبر الجهنى حليف بنى عوف ابن الخزرج على الماء ، فاقتتلا ،
فصرخ الجهنى ، يامعشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين.
فغضب عبد الله بن أبىّ بن سلول ، وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد

ابن أرقم وهو غلام حدث . فقال : أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا . والله ما أعدّنا وجلابيب قريش (الجلابيب اسم كان المنافقون يلقبون به المهاجرين) إلا كما قال الأول : سَمِّنْ كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم : أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب . فقال : مُرْ به عباد بن بشر فليقتله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا . ولكن أذن بالرحيل » . وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها . فارتحل الناس ، وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه ، فحلف بالله ماقلت ما قال ولا تكلمت به . وكان في قومه شريفا عظيما . فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه : يارسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل — حدبا على ابن أبي بن سلول ودفعا عنه .

قال ابن إسحق : فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار

لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه . ثم قال : يانبى الله والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أو ما بلغك ماقال صاحبكم ؟ » قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟ قال « عبد الله بن أبى ». قال :وما قال ؟ قال :. « زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل » . قال : فأنت يارسول الله والله لتخرجنه منها إن شئت . هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يا رسول الله ارفق به . فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه . فإنه ليرى أنك استلبته ملكا !

« ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس . ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما ، وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشغل الناس عن الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبىّ .

قال ابن اسحق : ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين ، فى ابن أبىّ ومن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن أرقم ثم قال : « هذا الذى أوفى لله بأذنه » .. وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبىّ الذى كان من أمر أبيه .

قال ابن اسحق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله

أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبىّ فيما بلغك عنه . فإن كنت لا بد فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى . وإنى أخشى أن تأمر غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبىّ يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » .

« وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم « كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » قال : قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى» .

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبىّ على باب المدينة واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبىّ قال له ابنه : وراءك ! فقال : مالك ؟ ويلك ! فقال : والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه العزيز وأنت الذليل! فلما جاء رسول الله

صلى الله عليه وسلم وكان إنما يسير ساقة (أى فى مؤخرة الجيش ينظر المتخلف والضال والمحتاج إلى معونة) فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه . فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له . فإذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أما إذ أذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجُز الآن !

. . . »

« وهذا عبد الله (ابن عبد الله بن أبيّ) رضى الله عنه وأرضاه نموذج رفيع للمسلم المتجرد الطائع : يشقى بأبيه ويضيق بأفاعيله ويخجل من مواقفه ، ولكنه يكن له ما يكنه الولد البار العطوف . ويسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يقتل أباه هذا . فيختلج قلبه بعواطف ومشاعر متباينة ، يواجهها هو فى صراحة وفى قوة وفى نصاعة . إنه يحب الإسلام ويحب طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحب أن ينفذ أمره ولو فى أبيه . ولكنه لا يطيق أن يتقدم أحد فيضرب عنق أبيه ويظل يمشى على الأرض بعده أمام ناظريه . وهو يخشى أن تخونه نفسه ، وألا يقدر على مغالبة شيطان العصبية ، وهتاف الثأر . وهنا يلجأ إلى نبيه وقائده ليعينه على خلجات قلبه ، ويرفع عنه هذا العنت الذى يلاقيه . فيطلب منه إن كان لابد فاعلا أن يأمره هو بقتل أبيه . وهو لابد مطيع . وهو يأتيه برأسه . كى لا يتولى ذلك غيره ، فلا يطيق أن

يرى قاتل أبيه يمشى على الأرض ، فيقتله ، فيقتل مؤمناً بكافر . . فيدخل النار . .

« وإنها لروعة تواجه القلب أينما اتجه وأينما قلّب فى هذا الموقف الكريم . روعة الإيمان فى قلب إنسان وهو يعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكل إليه أشق عمل على النفس البشرية — أن يقتل أباه — وهو صادق النية فيما يعرض . يتقى به ما هو أكبر فى نظره وأشق .. وهو أن تضطره نوازعه البشرية إلى قتل مؤمن بكافر ، فيدخل النار . . وروعة الصدق والصراحة وهو يواجه ضعفه البشرى تجاه أبيه وهو يقول : « فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى . وهو يطلب من نبيه وقائده أن يعينه على هذا الضعف ويخرجه من هذا الحرج ، لا بأن يرد أمره أو يغيره — فالأمر مطاع والإشارة نافذة — ولكن بأن يكل إليه هو أن يأتيه برأسه !

« والرسول الكريم يرى هذه النفس المؤمنة المتحرجة ، فيمسح عنها الحرج فى سماحة وكرامة : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » .. ومن قبل هذا يكف عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن رأيه :

« فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » ؟

« ثم تصرف الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحادث تصرف القائد الحكيم . . وأمره بالسير فى غير أوان ، ومتابعة السير حتى الإعياء ،

ليصرف الناس عن العصبية المنتنة التى أثارها صياح الرجلين المتقاتلين : ياللأنصار ! ياللمهاجرين ! وليصرفهم كذلك عن الفتنة التى أطلقها المنافق عبد الله بن أبي بن سلول ، وأرادها أن تحرق ما بين الأنصار والمهاجرين من مودة وإخاء فريدين فى تاريخ العقائد وفى تاريخ الإنسان ..

« وأخيراً نقف أمام المشهد الرائع الأخير : مشهد الرجل المؤمن عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ، وهو يأخذ بسيفه مدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل ، تصديقاً لمقاله هو : « ليخرجن الأعز منها الأذل » ليعلم أن رسول الله هو الأعز ، وأنه هو الأذل . ويظل يقفه حتى يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأذن له . فيدخلها بإذنه . ويتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعز ومن هو الأذل . فى نفس الواقعة . وفى ذات الأوان .

« ألا إنها لقمة سامقة تلك التى رفع الإيمان إليها أولئك الرجال . رفعهم إلى هذه القمة وهم بعد بشر بهم ضعف البشر ، وخوالج البشر . وهذا هو أجمل وأصدق ما فى هذه العقيدة ، حين يدركها الناس على حقيقتها ، وحين يصبحون هم حقيقتها التى تدب على الأرض فى صورة أناسى تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق »[1]

* * *

(١) فى ظلال القرآن جـ ٢٨ ص ١٠٩ ــ ص ١١٤ .

قال أنس بن مالك : « بينما أنا أدير الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجراح وأبي دجانة ومعاذ بن جبل وسهيل ابن بيضاء حتى مالت رءوسهم من الخمر ، إذ سمعت مناديا ينادى : ألا إن الخمر قد حرّمت . قال : فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب وكسرنا القلال . وتوضأ بعضنا ، واغتسل بعضنا ، وأصبنا من طيب أم سليم ثم خرجنا إلى المسجد »[1] .

وعن أبي بريدة عن أبيه قال : « بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر ، إذ قمت حتى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه ، وقد نزل تحريم الخمر ، فجئت أصحابي فقرأت الآية عليهم إلى قوله : « فهل أنتم منتهون ؟ » قال : وبعض القوم شربته في يده شرب بعضاً وبقى بعض في الإناء ، فأراقوا مافي كئوسهم ، ثم صبوا مافي باطيتهم وقالوا : انتهينا ربنا . انتهينا ربنا »[2] .

« وما تكونت عصابات للتهريب ، ولا لجأت الدولة إلى أحكام الإعدام والسجن ومصادرة الأموال والأملاك ، ولكنها المبادرة إلى التنفيذ في يسر وطاعة امتثالا لأمر القرآن[3] » .

* * *

(١) رواه ابن جرير بسنده في تفسير ابن كثير .
(٢) رواه ابن جرير بسنده في تفسير ابن كثير .
(٣) عن كتاب « منهج القرآن في التربية » لمحمد شديد .

وعن صفية بنت شيبة قالت :

« بينما نحن عند عائشة ، قالت : فذكرن نساء قريش وفضلهن ، فقالت عائشة : إن لنساء قريش لفضلا ، وإنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار ولا أشد تصديقا لكتاب الله ، ولا إيمانا بالتنزيل . لما نزلت فى سورة النور : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم منها ، يتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذى قرابته ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرجّل فاعتجرت به[1] تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتاب »[2] .

* * *

« كان المشركون فى مكة قد منعوا عددا من المؤمنين من الهجرة وحبسوهم بها وقيدوهم بالأغلال وعذبوهم ليفتنوهم عن دينهم ، فلما كان عهد الحديبية ، نص فيه على أن من يهرب منهم ويأتى المدينة يرده الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة . وقد استطاع أبو بصير « عتبة بن أسيد » أن ينفلت من محبسه ، وسار على قدميه سبع ليال حتى وصل المدينة ، فبعث المشركون فى إثره برجلين ليتسلماه وفاء بعهد الحديبية ، وكان موقفا عنيفا على المؤمنين أن يردوا شابا مؤمنا إلى المشركين

(١) أى غطت به رأسها . (٢) رواه أبو داود .

ليعذبوه بعد مالقى منهم من عذاب وما بذل من جهد ومشقة حتى بلغ المدينة ، وظن أبو بصير أنه قد أمن واستراح من الفتنة والعذاب ، ولم يتصور أن يسلمه الرسول صلى الله عليه وسلم لأعدائه . فلما أمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرجع ، ودفعه إلى سفيرى قريش ، قال : يارسول الله تردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فقال له : « يا أبا بصير : إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجا ومخرجا » . فقال أبو بصير متعجبا : يارسول الله ! تردنى إلى المشركين ؟ ! فقال له : « انطلق يا أبا بصير ، فإن الله سيجعل لك مخرجا » . ودفعه إلى الرجلين ليعودا به إلى مكة » [1] .

* * *

«قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله . أرأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه ؟ قال : نعم يا ابن أخى قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال والله لقد كنا نجهد . فقال : والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا . قال ، فقال حذيفة : يا ابن أخى ، والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق ، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويًا من الليل ثم التفت

(١) عن كتاب « منهج القرآن فى التربية » لمحمد شديد .

إلينا فقال : « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع — يشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة — أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة ؟ » فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى . فقال : « يا حذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدث شيئاً حتى تأتينا » قال : فذهبت ، فدخلت فى القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ماتفعل ، ولا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء . فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه . . . ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكراع والخف (يعنى الخيل والجمال) وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ماترون . ماتطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء . فارتحلوا إنى مرتحل . . . قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلى فى مرط (أى كساء) لبعض نسائه مرجل (من وشى اليمن) فلما رآنى أدخلنى إلى رجليه ، وطرح على طرف المرط ، ثم ركع وسجد وإنى لفيه . فلما سلم أخبرته الخبر . . وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم » .

« . . . لقد كان الهول الذى واجهه المسلمون فى هذا الحادث من

الضخامة ، وكان الـكرب الذى واجهوه من الشدة ، وكان الفزع الذى لقوه من العنف ، بحيث زلزلهم زلزالا شديدا ، كما قال عنهم أصدق القائلين : « هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » . .

« لقد كانوا ناسا من البشر . وللبشر طاقة . لايكلفهم الله مافوقها . وعلى الرغم من ثقتهم بنصر الله فى النهاية ، وبشارة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ، تلك البشارة التى تتجاوز الموقف كله إلى فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق . على الرغم من هذا كله ، فإن الهول الذى كان حاضرا يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم .

« ومما يصور هذه الحالة أبلغ تصوير خبر حذيفة . والرسول صلى الله عليه وسلم يحس حالة أصحابه ، ويرى نفوسهم من داخلها ، فيقول : « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟ » — يشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة — ومع الدعاء المضمون بالرفقة مع رسول الله فى الجنة فإن أحدا لايلبى النداء . فإذا عين بالاسم حذيفة قال : فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى ! . . ألا إن هذا لا يقع إلا فى أقصى درجات الزلزلة ..

« ولـكن إلى جانب الزلزلة ، وزوغان الأبصار ، وكرب الأنفاس .. كان إلى جانب هذا كله الصلة التى لا تنقطع بالله ، والإدراك الذى لا يضل عن سنن الله ، والثقة التى لاتتزعزع بثبات هذه السنن ، وتحقق

أواخرها متى تحققت أوائلها . ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببا فى انتظار النصر . ذلك أنهم صدقوا قول الله سبحانه من قبل : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب » . . وهاهم أولاء يزلزلون : فنصر الله إذن منهم قريب ! ومن ثم قالوا : « هذا ما وعدنا الله ورسوله . وصدق الله ورسوله ».. « وما زادهم إلا إيمانا وتسليما » .

« هذا ما وعدنا الله ورسوله » .. هذا الهول وهذا الكرب وهذه الزلزلة وهذا الضيق ، وعدنا عليه النصر . فلا بد أن يجئ النصر : « وصدق الله ورسوله » صدق الله ورسوله فى الأمارة وصدق الله ورسوله فى دلالتها . ومن ثم اطمأنت قلوبهم لنصر الله ووعد الله : « وما زادهم إلا إيمانا وتسليما » .

«لقد كانوا ناسا من البشر ، لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر وضعف البشر . وليس مطلوبا منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشرى ، ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس ، ويفقدوا خصائصه وميزاته . فلهذا خلقهم الله . خلقهم ليبقوا بشرا ، ولا يتحولوا جنسا آخر . لا ملائكة ولا شياطين ، ولا بهيمة ولا حجرا . . كانوا ناسا من البشر يفزعون ويضيقون بالشدة . ويزلزلون للخطر الذى يتجاوز الطاقة . ولكنهم

كانوا — مع هذا — مرتبطين بالعروة الوثقى التى تشدهم إلى الله ؛ وتمنعهم من السقوط ، وتجدد فيهم الأمل وتحرسهم من القنوط . وكانوا بهذا وذاك نموذجا فريدا فى تاريخ البشرية لم يعرف له نظير .

« وعلينا أن ندرك هذا لندرك ذلك النموذج الفريد فى تاريخ العصور . علينا أن ندرك أنهم كانوا بشرا لم يتحلوا عن طبيعة البشر ، بما فيها من قوة وضعف . وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا فى بشريتهم هذه أعلى قمة مهيئة لبنى الإنسان فى الاحتفاظ بخصائص البشر فى الأرض مع الاستمساك بعروة السماء »[1] .

* * *

عن بريدة قال : « جاء ماعز بن مالك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله طهرنى ، فقال . ويحك ! ارجع فاستغفر الله وتب إليه . قال فرجع غير بعيد ثم جاء فقال : يارسول الله طهرنى . فقال النبى صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، حتى إذا كانت الرابعة قال رسول الله : مم أطهرك ؟ قال : من الزنا . فسأل رسول الله : أبه جنون ؟ فأخبر رسول الله أنه ليس بمجنون . فقال أشرب خمرا ؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر فقال : أزنيت ؟ قال : نعم ! فأمر به فرجم . فلبثوا يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : استغفر الماعز بن مالك ،

(١) فى ظلال القرآن حـ ٢١ ص ١٤٧ ، ص ١٤٨ — ١٥٠

لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم . ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد ، فقالت : يارسول الله طهرنى . فقال : ويحك ! ارجعى فاستغفرى الله وتوبى إليه . فقالت : تريد أن تردنى كما رددت ماعز بن مالك ؟ إنها حبلى من الزنا ! فقال : أنت ؟ قالت : نعم ! قال لها : حتى تضعى ما فى بطنك . قال : فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : قد وضعت الغامدية . فقال : إذن لا نرجمها وندع ولدها صغيرا ليس له من ترضعه . فقام رجل من الأنصار فقال : إلىّ رضاعه يانبى الله . قال فرجمها . ويروى أنه قال لها : اذهبى حتى تلدى . فلما ولدت قال : اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز ، فقالت : هذا يانبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام . فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها ، فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد ، فسبها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مهلا يا خالد ، فوالذى نفسى بيده ، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت » .

* * *

« يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان . ضرب قيمة كل حلة منه أربعمائة ، وضرب كل حلة قيمتها مئتان . فمر

إلى الصلاة وخلف ابن أخيه فى الدكان ، فجاء أعرابى وطلب حلة بأربعمائة ، فعرض عليه من حلل المئتين ، فاستحسنها ورضيها واشتراها ، فمضى بها ، وهى على يديه ، فاستقبله يونس ، فعرف حلته ، فقال للأعرابى : بكم اشتريت ؟ فقال : بأربعمائة . فقال : لا تساوى أكثر من مائتين ، فارجع حتى تردها ! فقال : هذه تساوى فى بلدنا خمسمائة وأنا ارتضيتها . فقال يونس : انصرف ، فإن النصح فى الدين خير من الدنيا بما فيها . ثم رده إلى الدكان ، ورد عليه مائتى درهم وخاصم ابن أخيه فى ذلك ، وقال له أما استحييت ! أما اتقيت الله ! تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين ! فقال : والله ما أخذها إلا وهو راض بها . قال : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ؟ »[1].

* * *

« يا أيها النبى ، قل لأزواجك : إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ،فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما » .

« لقد اختار النبى صلى الله عليه وسلم لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف ، لا عجزاً عن حياة المتاع ، فقد عاش حتى فتحت له الأرض ، وكثرت غنائمها ، وعم فيؤها ، واغتنى من لم يكن له من قبل مال

(١) عن كتاب « الرسالة الخالدة » للأستاذ عبد الرحمن عزام .

ولا زاد ! ومع هذا فقد كان الشهر يمضى ولا توقد فى بيوته نار .
مع جوده بالصدقات الهبات والهدايا . ولكن ذلك كان اختياراً
للاستعلاء على متاع الحياة الدنيا ورغبة خالصة فيما عند الله . رغبة الذى يملك
ولكنه يعف ويستعلى ويختار . . ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم
مكلفا من عقيدته ولا من شريعته أن يعيش مثل هذه المعيشة التى أخذ
بها نفسه وأهل بيته ، فلم تكن الطيبات محرمة فى عقيدته وشريعته ؛
ولم يحرمها على نفسه حين كانت تقدم إليه عفوا بلا تكلف ، وتحصل
بين يديه مصادفة واتفاقا ، لا جريا وراءها ولا تشهيا لها ، ولا انغماساً
فيها ولا انشغالا بها . . ولم يكلف أمته كذلك أن تعيش معيشته التى
اختارها لنفسه ، إلا أن يختارها من يريد ، استعلاء على اللذائذ والمتاع ،
وانطلاقاً من ثقلتها إلى حيث الحرية التامة من رغبات النفس وميولها .

« ولكن نساء النبى صلى الله عليه وسلم كن نساء ، من البشر ،
لهن مشاعر البشر . وعلى فضلهن وكرامتهن وقربهن من ينابيع النبوة
الكريمة ، فإن الرغبة الطبيعية فى متاع الحياة ظلت حية فى نفوسهن .
فلما أن رأين السعة والرخاء بعد ما أفاض الله على رسوله وعلى المؤمنين
راجعن النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر النفقة . فلم يستقبل هذه
المراجعة بالترحيب ، إنما استقبلها بالأسى وعدم الرضا ، إذ كانت
نفسه صلى الله عليه وسلم ترغب فى أن تعيش فيما اختاره لها من طلاقة

وارتفاع ورضى ، متجردة من الانشغال بمثل ذلك الأمر والاحتفال به أدنى احتفال ، وأن تظل حياته وحياة من يلوذون به على ذلك الأفق السامى الوضىء المبرأ من كل ظل لهذه الدنيا وأوشابها . لا بوصفه حلالا وحراما — فقد تبين الحلال والحرام — ولكن من ناحية التحرر والانطلاق والفكاك من هواتف هذه الأرض الرخيصة .

« ولقد بلغ الأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مطالبة نسائه له بالنفقة أن احتجب عن أصحابه . وكان احتجابه عنهم أمراً صعباً عليهم يهون كل شىء دونه . وجاءوا فلم يؤذن لهم . روى الإمام أحمد — بإسناده — عن جابر رضى الله عنه قال : أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس ببابه جلوس، والنبى صلى الله عليه وسلم جالس فلم يؤذن له. ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له . ثم أذن لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلا والنبى صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نساؤه وهو صلى الله عليه وسلم ساكت . فقال عمر رضى الله عنه لأكلمن النبى صلى الله عليه وسلم لعله يضحك . فقال عمر رضى الله عنه يارسول الله لو رأيت ابنة زيد — إمرأة عمر — سألتنى النفقة آنفاً فوجأت عنقها ! فضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، وقال : « هن حولى يسألننى النفقة » ! فقام

أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة ليضربها وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان : تسألان النبى صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ؟! فنهاهما الرسول صلى الله عليه وسلم فقلن : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا المجلس ما ليس عنده . . قال : فأنزل الله عز وجل الخيار ، فبدأ بعائشة رضى الله عنها فقال : « إنى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » قالت : ماهو ؟ قال فتلا عليها (ياأيها النبى قل لأزواجك . . الآية) قالت عائشة رضى الله عنها : أفيك أستامر أبوىّ ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله . وأسالك ألا تذكر لأمرة من نسائك ما اخترت ! فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفاً ، ولكن بعثنى معلما ميسراً . لا تسألنى إمرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها »

« . . . . . .

« ونحب أن نقف لحظات أمام هذا الحادث نتدبره من بعض زواياه .

« إنه يحدد التصور الإسلامى الواضح للقيم ، ويرسم الطريق الشعورى للإحساس بالدنيا والآخرة ، ويحسم فى القلب المسلم كل أرجحة وكل لجلجة بين قيم الدنيا وقيم للآخرة ، بين الاتجاه إلى الأرض والاتجاه إلى السماء . ويخلص هذا القلب من كل وشيجة غريبة تحول بينه وبين التجرد لله والخلوص له وحده دون سواه .

« هذا من جانب . ومن الجانب الآخر يصور لنا الحادث حقيقة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والذين عاشوا معه واتصلوا به . وأجمل ما فى هذه الحقيقة أن تلك الحياة كانت حياة إنسان وحياة ناس من البشر ، لم يتجردوا من بشريتهم ومشاعرهم وسماتهم الإنسانية . مع كل تلك العظمة الفريدة البالغة التى ارتفعوا إليها ، ومع كل هذا الخلوص لله والتجرد مما عداه . فالمشاعر الإنسانية والعواطف البشرية لم تمت فى تلك النفوس ولكنها ارتفعت ، وصفت من الأوشاب . ثم بقيت لها طبيعتها البشرية الحلوة ، ولم تعوق هذه النفوس عن الارتفاع إلى أقصى درجات الكمال المقدر للإنسان »[1]

* * *

من هذه النماذج المتفرقة التى تجمع بين البطولات النادرة ولحظات الضعف العارض . . تتبين لنا صورة من المجتمع المسلم الذى عاش فيه المسلمون الأوائل ، فى ظل إدراكهم الصحيح لمفهوم الإسلام ، وأخذهم الأمور أخذاً جاداً كما ينبغى للمؤمنين بهذا الدين ، الذين يقدرون معنى الإيمان ، ويقدرون التبعات التى يلقيها على عاتقهم وجودهم الإنسانى الصحيح .

نعم . . ليست المسألة فرائض يفرضها هذا الدين على الناس بلا موجب . إلا رغبة التحكم فى العباد !

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٢١ ص ٦ — ٨

إنما هو الوجود الإنسانى الصحيح . . إذا رغب الإنسان أن يكون إنسانا حقاً . . لا مجرد كائن يأكل ويشرب ، ويقضى أيامه على هذه الأرض كيفما اتفق ، وكيفما شاءت له نزوة اللحظة التى يعيش فيها . . بلا تقدير لنواميس الكون ، ولا لموضع الإنسان المتميز فى هذا الكون كله . . بوصفه خليفة الله .

وقد كان هذا هو التقدير الصحيح « للإنسان » فى نفوس المسلمين الأوائل الذين عاشوا فى ظل الإسلام . استمدوه من كلام الله وسنة رسوله . وعاشوه فى واقع حياتهم . فكان حقاً لهم أن يسودوا الأرض، وأن يكونوا فيها القوة العليا ، التى تهيمن على البشرية وتقودها فى الطريق الصحيح .

فالإسلام فى حقيقته هو وضع الإنسان فى وضعه الصحيح . هو تعريف الإنسان بما يشتمل عليه من طاقات واستعدادات ، ووضع هذه الطاقات والاستعدادات فى وضعها الصحيح بعضها من بعض ، ثم إطلاقها للعمل ، فى تناسقها وتكاملها ، المتسق مع ناموس الكون ، فتأخذ صورتها الحقيقية : لا قوة أرضية صغيرة محدودة ، ولكن قوة كونية ، متفاعلة مع الكون مهتدية بناموسه الأكبر الذى خلقه الله .

ومن ثم تقع منها تلك المعجزات التى وقعت فى هذا المجتمع المسلم ، والتى اقتطفنا منها هذه النماذج المفردة ، والتى سجل لها التاريخ أنها

كانت أكبر محاولة جادة لإقامة الحياة بين الناس فى الأرض على أسس من العدالة ، وأكبر محاولة جادة لتنمية الحياة فى جميع مرافقها ، المادية والروحية ، الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والعملية .. على مستوى « إنسانى » نظيف ، لا يقصر الخير على فئة معينة من الناس بدافع من الأنانية البغيضة ، وإنما يبذل الخير للناس كلهم ، حتى أولئك الذين لا يؤمنون بهذا الدين ، بل حتى أولئك الذين كانوا يحاربونه من الصليبيين !

* * *

هذه الصورة العالية من الإيمان . . هذه الصورة العالية من تقويم « الإنسان » ووضعه فى الوضع الصحيح بالنسبة « للوجود الإنسانى » .. هذا الانطلاق العالى بالطاقة البشرية فى جميع ميادين العمل والفكر والشعور . . هذه الصورة النظيفة للكيان البشرى ، التى لا تخرج به مع ذلك عن بشريته ، وإنما تأخذ منه أفضل ما يعطيه مع المحافظة على كل خصائص الإنسان . . هذه الصورة العالية كيف انحرفت عن السبيل ؟ !

كيف صار المسلمون إلى ما صاروا إليه اليوم من انحراف عن الإسلام ، وكيف انحسر مفهوم الإسلام فى نفوسهم إلى هذه الصورة الهزيلة ، التى صارت — فى أحسن حالاتها — مجموعة من الشعائر التعبدية « الخالصة » ، وفى معظم حالاتها عبادة لله « بالنية الحسنة ! » ، وفى أسوأ حالاتها خروجاً

صريحاً على الدين ، ونفوراً منه وانسلاخا من كل رابط يربطهم بتعاليمه ؟

لاشك أن انحرافاً عظيما وقع فى نفوس المسلمين .

فمجرد المقارنة بين صورة المجتمع المسلم والمجتمع الذى نعيش فيه ، تبين لنا الفارق المذهل بين المجتمعين ، وتكاد تفصل بين المجتمع الذى نعيش فيه وبين الإسلام ! لولا هذه الصيحات المتكررة فى أنحاء العالم الإسلامى ، الداعية إلى العودة للإسلام ، ولولا أولئك الأفراد ، المتفرقون فى العالم الإسلامى ، الذين يدركون المفهوم الصحيح للإسلام ، ويعيشونه فى واقع حياتهم — بقدر مايطيقون فى مجتمع غير مسلم — ثم يدعون الناس أن يدركوا هذا المفهوم معهم ، ويعيشوا معهم فيه .

ولاشك كذلك أن عوامل عنيفة جداً هى التى أثرت على المجتمع المسلم وأثرت على المفهوم الإسلامى حتى صار إلى ماصار إليه .. فليس من الطبيعى أن تذهب هذه القوة كلها بددا بدون مؤثرات عنيفة ، وليس من الطبيعى أن ينحدر تقدير الإنسان لنفسه ، ولطاقاته واستعداداته ، فينزل من موقف الرفعة والقوة والاستعلاء إلى موقف الهبوط والضعف والهوان .. إلا أن تكون قد عملت فى نفسه عوامل فظيعة مدمرة أفسدت كيانه .

والآن فلننظر كيف بدأ وكيف امتد خط الانحراف .

خط الانحراف

كيف بدأ خط الانحراف وكيف امتد ؟

هل كان من الممكن أن يحتفظ المجتمع الإسلامى بصورته الرفيعة العالية إلى فترة طويلة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذهاب التأثير المباشر الذى كان لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم على نفوس الناس ؟

لا نكون واقعيين إذا أجبنا على هذا السؤال بالإيجاب !

ولكننا لا نكون واقعيين كذلك إذا قلنا إن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذهاب تأثير شخصيته المباشر على نفوس الناس ، معناه تحطيم المجتمع الإسلامى وتدمير قواعده من الأساس .

لا نكون واقعيين . . ولا نكون مؤمنين !

لا نكون واقعيين ، لأننا نبخس الكيان البشرى قدره إذا قررنا أن إيمان الإنسان بالمثل والمبادىء والقيم شذوذ فى حياته ، يحتاج إلى قوى خارقة لتثبيته ، فإذا احتجبت تلك القوى الخارقة ذهب الإيمان!

نبخسه قدره ونغفل الواقع الذى عاشه الإنسان بالفعل على مدار التاريخ ، مؤمناً بالمثل والقيم والمبادىء ، وعاملا على نشرها وتثبيتها ، وكادحاً من أجلها فى الواقع الحياة .

ونغفل الواقع الإسلامى كذلك ، الذى عاشه الإسلام أكثر من ألف عام ! !

ولا نكون مؤمنين ، إذا تصورنا أن الله سبحانه يصنع للناس هذا الصنيع كله ، فينزل عليهم كتابه ، ويرسل إليهم رسوله ، ويكلفه ما كلفه من إقامة أمة على هدى الكتاب ، وتربيتها على تشريعاته وتوجيهاته ، ويفصّل لهم فى كتابه ما فصل من التشريع والتوجيه . . ليكون ذلك كله موقوتا ببضع سنين . . أو بضع عشرات من السنين !

إنه عبث يتنزه عنه بعض الفانين من أهل هذه الأرض . . فضلا عن أن يصدر عن الله خالق الكون والحياة !

كلا ! لم يكن الأمر الطبيعى أن تتقوض أركان المجتمع المسلم وتنحرف أصوله لمجرد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذهاب تأثيره المباشر على نفوس الناس .

ولم يكن طبيعياً كذلك أن تظل على مستواها السامق الرفيع !

كان طبيعياً أن تهبط بعض الشىء !

فقد ارتفع الناس كلهم على ذواتهم بالتأثير المباشر لشخصية الرسول .

فحين يذهب هذا التأثير المباشر ، فمن الطبيعى أن يرجعوا إلى ذواتهم ويعيشوا فى هذه الحدود . نعم . ولكن ما هذه الحدود ؟

إنها الحدود التي يصنعها الإسلام . . وفرق بين الإسلام وبين شخصيته الرسول !

« يا أيها الناس : من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات .. ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ! »

تلك الكلمة الصادقة التى قالها أبو بكر رضى الله عنه عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والإسلام كلمة الله . . فهى كلمة حية لا تموت !

وتأثير الإسلام فى نفوس الناس دائم ، لأنه يعقد الصلة المباشرة بين قلوب الناس وبين الله . . الحى الذى لا يموت . . فيتبعون كلماته ، ويربون أنفسهم على ما يريد .

ثم إن تأثير شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ليس مقصوراً على فترة حياته ، فالقدوة فيه والأسوة قائمة ما فتح الناس لها القلوب . .

ومن هنا ظل الناس مسلمين بعد وفاة الرسول !

وإذا كانت الفترة « المثالية » من حياة الإسلام لم تدم ، ولم يكن مقدراً لها فى علم الله وفى طبائع الأشياء أن تدوم ، فقد كان ينبغى أن توجد ، لتظل صورة باهرة معروضة للأنظار ، تحاول الأجيال المتعاقبة منها ما تستطيع ، ويصل إلى مستواها الرفيع أفراد متعاقبون

على مدار الأجيال ، يعيدون للإسلام قوته وحيويته كلما بعد العهد ، وطالت الشقة ، وتهاوى الناس فى الطريق !

وتلك — فيما نحسب — حكمة وجود تلك الفترة النادرة بكل مثاليتها ، كما قدرها الله فى عليائه ، وكما تحققت فى واقع المسلمين فى أربعة عشر قرنا توالت فيها الظلمات والنور !

* * *

كان المفروض إذن أن يستمر المجتمع الإسلامى مسلماً ، ويمتد فى أرجاء الأرض ، ويقيم قواعد الإسلام ، ويعيش فى مفهومه . . إلى ما يشاء الله بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد حدث شىء كثير من ذلك الأمر المفروض . . ولفترة طويلة جداً من التاريخ .

لم تستو الحياة — فى كل جوانبها — على الأفق الأعلى الذى كان وقت حياة الرسول وخلفائه الراشدين ، ولكنها ظلت مع ذلك عالية.. عالية جداً بالنسبة لكل ما عرفته الأرض من نظم وقيم وحضارات .

وقد مر بنا من قول المستشرق ولفرد كانتول سميث أن المحاولة الإسلامية لنشر العدالة بين الناس كانت وما تزال أشد المحاولات جداً وأكثرها جهداً . كما مر بنا من أقوال غيره من المستشرقين ما يبين كيف امتد المد الإسلامى فى مختلف مرافق الحياة حتى شمل

الأرض المعروفة كلها فى ذلك الحين ، واستضاءت به أوربا فى كل مرفق من مرافق نهضتها الأخيرة فى العصر الحديث .

والمعانى « الإنسانية » التى رسخها المسلمون فى الضمير البشرى ، والتى التقطتها أوربا فى الحروب الصليبية مرة ، وفى الجامعات الإسلامية فى الأندلس والشمال الأفريقى مرة . . داخلة كما مر بنا من قول بروبفولت فى كل الأسس الحضارية التى يقوم عليها العالم المتحضر اليوم .

فليس صحيحاً إذن ما اندس فى أوهام بعض المسلمين أنفسهم ، من أن الإسلام قد انتهى بعد فترة الرسول والخلفاء الراشدين !

الصحيح فقط أن الفترة المثالية قد انتهت ، وبدأت فترة « عادية » من تاريخ الإسلام ، وإن كانت — وهى عادية بالنسبة للإسلام — أعلى فترة فى تاريخ الأرض .

* * *

ولكن خط الانحراف بدأت منذ ذلك الحين .

بدأ منذ العصر الأموى أول كسر فى المبادىء الإسلامية فى سياسية الحكم وسياسة المال ، إذ بدأ « الملك العضوض » بنظامه الوراثى ومظالمه ، وبدأ ما يشبه الإقطــــاع فى محيط الأمراء وأتباع السلطان .

ومع ذلك فقد ظل المجتمع إسلامياً فى مجموعه . كانت العاصمة

وحدها هى التى فسدت . فسدت فساداً جزئيا فى سياسية الحكم والمال بالنسبة للملوك والأمراء . ولكن مازال أولئك الحكام أنفسهم — رغم انحرافهم — يقرون بمبادىء الإسلام ويحكمون شريعة الله فى شئون الناس، كبيرها وصغيرها ، مع التحايل عليها أحيانا فيما يختص بأشخاصهم وأقربائهم فى شئون الحكم والمال .

وهو فساد ما فى ذلك شك . ولكنه كما قلنا فساد جزئى لم يتعد العاصمة إلى بقية المجتمع الإسلامى . ولم يتأثر به المسلمون — إلا قليلا — فى حياتهم اليومية ، فظلوا يعيشون فى مفهوم الإسلام ويكيفون به حياتهم ، ويعملون — فى عالم الواقع — على نشر المد الإسلامى فى بقاع الأرض ، شاعرين بالعزة التى قررها الله لذاته — سبحانه — ولرسوله وللمؤمنين . شاعرين بالاستعلاء الذى يصنعه الإيمان فى نفوس المؤمنين . شاعرين بالتبعة الكبرى التى يفرضها الإيمان عليهم فى ذوات أنفسهم وفى مجتمعهم . شاعرين بالإخاء الحقيقى الذى يجمع المؤمنين بعضهم إلى بعض . شاعرين بالمودة والتعاون . شاعرين أنهم أمة واحدة : يدخل المسلم إلى أى قطر من أقطار الأرض المسلمة ، فإذا هو — بصرف النظر عن الحكومات وخلافاتها — أخ لكل من فيه من المسلمين ، يتلقى منهم المودة والمعونة والأخوة ، ويمنحهم من نفسه ما يمنحونه من نفوسهم . شاعرين أن المال مال الله ، والناس كلهم شركاء فيه ،

لا الغنى مستأثر ولا الفقير محروم . شاعرين أن سلوكهم الشخصى ينبغى أن يكون مطابقا لما يريده الله ورسوله — بقدرماوسعهم من جهد — وهو جهد كبير فى واقع الأمر — وأن شريعة الله هى المصدر الدائم للحياة ، والدستور الذى لا دستور غيره لحكم حياتهم وتنظيم العلاقات بين الناس ، وأن عليهم أن يعملوا فى عالم الواقع بالعلم والعمل والجهد الجاد لتحقيق الاستعلاء والقوة ، وهداية البشرية كلها إلى النور .

وفى ذلك كانت الفتوح التى يعرفها التاريخ فى كل مناحى الحياة .

* * *

ثم جاء العصر العباسى . . ودخل الفرس فى توجيه سياسة الدولة وتشكيل صورتها . ودخل فى «الفكر الإسلامى » بعض المفاهيم الغريبة عليه — وأبرزها الصوفية والفلسفة النظرية التجريدية الغريبة على التصور الإسلامى فى واقعيته المثالية — كما دخل العاصمة كثير من ألوان الفساد الخلقى، وانتشر فى قصور الخلفاء والأمراء والأتباع جو من اللهو والفسوق والتفاهة والانصراف عن الكدح والجد . . لا يعرفه الإسلام ولا يمكن أن يسيغه . من جوارٍ ومطربين وملهين ، وألوان من البذخ الفاحش ، والترف الفاجر ، و«أدباء» يُمِدُّون لهذا كله ليرتزقوا . . ويقدمون المادة المتعفنة التى تستهلكها هاتة القصور ، ويبعدون «بالفن» عما يمكن أن يكون فناً إسلامياً حقيقياً ، ينبع من الحقيقة الإسلامية الكونية ويترجم

عنها ، ويجعلون منه أداة للزلفى حيناً ، وللتلهية والتطريب حيناً آخر . . وقلما يعبرون فيه عن معانى الحياة.

وانعكس شيء من هذا كله على المجتمع الإسلامى ولاشك . ولكننا نأخذ صورة غير صحيحة عن هذا المجتمع إذا تصورناه كله على صورة العاصمة الفاسدة الفاسقة المنحلة ، وقصور الخلفاء والأمراء والأتباع التى تزخر بالترف والفجور .

ولئن كانت كتب التاريخ ـ والغربى منها خاصة ـ قد عنيت عناية كبيرة بإبراز هذه الصورة للإسلام فى تلك الفترة ، فالذى يعرف ـ إلى ما قبل جيل واحد ـ كيف كانت تعيش العاصمة وكيف كان يعيش الريف فى كل البلاد الإسلامية ، يدرك من فوره ذلك الفارق الكبير بين الحياتين ، ويدرك أن فساد العاصمة وتبذّلها لا يعنى شيئاً كثيراً بالنسبة لبقية المجتمع، المحافظ على تقاليده ، بعيداً عن العاصمة وترفها المجنون.

ونحن هنا لا نؤرخ ـ كما تصنع كتب التاريخ ـ للملوك المسلمين و«خلفائهم» . . وإنما نستعرض تاريخ المجتمع الإسلامى ، تاريخ الأفراد العاديين الذين يكوّنون مجموع الأمة ، ويمثلون حقيقة الفكرة التى يعتنقونها .

وقد قلنا إن «شيئاً» من هذا الفساد المستشرى فى العاصمة قد انعكس على المجتمع . . ولكنه شيء ضئيل بالقياس إلى هذا الفساد . فلئن كانت

الخمر والجوارى واللهو والطرب هى « المودة » فى قصور العاصمة ، التى تنفق فيها الأموال وينفق فيها الجهد البشرى ، فقد كان فى تلك العاصمة ذاتها علماء يعكفون على عملهم بعيداً عن ضوضاء القصور وزخارفها ، يترجمون ويؤلفون ويتابعون أبحاثهم فى مراصدهم ومعاملهم ومكتباتهم الخاصة .. وكان فقهاء يعكفون على دراسة الفقه ويتبحرون فيه ويضيفون إلى تراثه بروح إسلامية خالصة . . وكان جغرافيون يجوبون الأرض ليكتشفوا أرض الله الواسعة ويكتبوا عنها كتابة علمية جادة مخلصة تتميز بالأمانة العلمية والدقة فى التحصيل والتسجيل. وكان دعاة يجوبون الأرض ليدعوا الناس إلى الإسلام فى «الصين» و «أندونيسيا» وغيرها من أقاصى آسيا ، وفى السودان شرقه وغربه من المحيط إلى المحيط.. وكان مجاهدون يدخلون المعارك ضد أعداء الإسلام فى كل مكان . . ثم كان « الفرد العادى » فى المجتمع ، فى المدن والريف والبيداء مسلماً يعيش بروح الإسلام ويحكّمها فى حياته ، يتجنب الحرام ويسعى إلى الحلال، مسترشداً بهدى الله ورسوله ، ومحافظاً على تقاليد المجتمع المستمدة من تقاليد الإسلام.

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن هذا المجتمع كان مثالياً وفاضلا فى جميع تصرفاته . . فذلك لم يحدث فى أى مجتمع فى الأرض فى أية فترة من فترات التاريخ . . ولا المجتمع الذى رباه على عينه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن معناه أن الخير فيه يغلب على الشر .. ونوازع الرفعة تغلب

على نوازع الهبوط .. والتقاليد الفاضلة تغلب على التقاليد المنحلة .

كان هذا المجتمع فى مجموعه أدنى درجة من مجتمع العصر الأموى.. ولكنه بعد مجتمع « مسلم » يعيش على مفاهيم الإسلام ، مع درجات من الانحراف فى هذه المفاهيم هنا أو هناك .

* * *

وجاء العصر التركى .. حين استولى الأتراك العثمانيون على مقاليد الإسلام .

وقد حقق الأتراك للإسلام أمجاداً حربية رائعة ما فى ذلك شك . ولكن لاشك كذلك فى أن مفاهيم الإسلام قد عانت انحساراً كبيراً على يد الأتراك . أو الأحرى أن نقول إنها جمدت وتحجرت على أيديهم وتوقفت عن النماء .

لقد كان أبرز ما فى الإسلام منذ مولده أنه «حركة».. حركة فاعلة فى كل اتجاه ، فى ميدان الفتح ، كما هو فى ميدان العلم ، وميدان الفقه ، وميدان الاقتصاد والاجتماع والفكر والسياسة .. وكل منحى من مناحى الحياة .

فلما تولاه العثمانيون امتدوا به فى ميدان الفتح ماشاءت لهم عبقريتهم الحربية وقوتهم العسكرية . ولكنهم جمدوا به جموداً معيباً فى بقية الميادين .

لم يكن لهم كبير اهتمام بالعلم .. ومن ثم توقف المد العلمى الإسلامى في ذات الوقت الذى بدأت فيه أوربا تنهل من المنابع الإسلامية لتستمد منها كل أسس النهضة الحديثة ، كما هو مسجل ومعروف لدى المؤرخين.

ولم يكونوا أصلاء فى الفقه . . فكل مادفعتهم إليه تقواهم هو الحرص على التراث الفقهى القائم بالفعل ، وتجميده على ماهو عليه .

والفقه هو التعبير الدائم عن نمو المجتمع فى ظل الفكرة الإسلامية . ومن ثم تلاقى تجميد الفقه وتجميد المجتمع الإسلامى فى وقفة هائلة منكرة لم يصب الإسلام بأسوأ منها فى تاريخه الطويل .

حافظ المجتمع على تقاليده الموروثة ولكن هذه التقاليد ذاتها فقدت معناها . صارت مظهراً بغير روح . مظهراً مقدسا فى ذاته ولو لم يؤد إلى المعنى المقصود به . ومن ثم كان الحجاب التركى — مثلا — مظهرا مقدسا من مظاهر المجتمع ، ولو كان الفسق والفجور فى أيام الدولة الأخيرة يجرى داخل القصور . . المحجبة التى لاتصل إليها عين إنسان !

ومن هذه الوقفة المنكرة بدأ الخطر الحقيقى على الإسلام... فليس أخطر على أية فكرة أو نظام من أن يقف نموه ويتجمد على صورة من الصور .. لأنه يأخذ بعد ذلك حتما فى الاضمحلال والضمور .

وفى أثناء ذلك كله كان الإسلام قد تعرض لأحداث عنيفة أليمة من الداخل والخارج على السواء . من صراعات الأسر الحاكمة ، ومن

هجمات المغول والتتار ، وهجمات الصليبيين حينا بعد حين . . فلما جاءت هذه الوقفة المتحجرة على يد الحكم العثمانى ، كان ذلك إرهاصا بضربة قاصمة تصيب الإسلام .

ولم يفت ذلك العالمَ الصليبى المتحفز الواقف بالمرصاد ، فقد كانت هذه فرصته السانحة المرتقبة من أزمان .

وانقض الصليبيون انقضاضتهم الهائلة على العالم الإسلامى ليدمروه ويقضوا عليه . .

ومع ذلك . . مع ذلك كله الذى أصاب الإسلام من داخله وخارجه . . فهل كان الإسلام قد مات وكتب عليه الفناء ؟ !

كلا !

فقد اقتضى الأمر من الصليبيين قرنا كاملا ليتغلبوا على العالم الإسلامى بكل ما يملكون من قوة وعتاد .

واقتضاهم قرنا آخر ليحاولوا تدميره والقضاء عليه بعد أن حكموه . مع كل ما يملكون من كيد ومكر وتدبير .

* * *

وقد حدث تحول هائل فى العالم الإسلامى بعد هذا الغزو الصيلبى الأخير .

هو أكبر تحول فى تاريخه كله . . وأكبر انحراف .

لقد كان المجتمع الإسلامى قد ضعف وتجمد . نعم . ولكنه لم يكن فى طريقه إلى الزوال .

فالحيوية العجيبة التى تتمثل فى هذه العقيدة .. الحيوية التى احتملت الهزات السابقة كلها ، من صراع الأسر الحاكمة ، وغارات التتار والصليبيين ، وأفاقت منها بعد فترة وتغلبت عليها .. هذه الحيوية العجيبة كانت قد بدأت تتحرك من الوقفة العثمانية المنكرة ، وبدأت تتحرر من ثقلة القيد التركى ، لتعاود الانطلاق من جديد .. تلك الحركات التى تمثلت فيما بعد فى الحركة الوهابية فى الحجاز ، والحركة المهدية التى قام بها المهدى الكبير فى السودان .. وكانت تلك الحركات قمينة أن تعيد للإسلام حيويته وانطلاقه ليكتب فصلا جديدا فى حياة البشر يضاف إلى مامضى من الفصول .

ولكن الاستعمار الصليبى كان قد عاجل العالم الإسلامى قبل تلك اليقظة الحية .. ليقضى على عدوه القديم .

وصنع الاستعمار الصليبى كل ماوسعه وماوسعته شياطين الأرض .. لتكون هذه الضربة هى القاضية ، وليقتلع الإسلام من الجذور .

فى هذه المرة لم تكن وسيلتهم هى الجيوش وحدها كما كان الأمر فى الغزوات السابقة . ولكن كان إلى جانب الجيوش كل مايملكون من علم وكيد وتدبير ومكر ، يشوهون به تعاليم الإسلام ذاتها ، وينشرون

هذه الصورة المشوهة فى قلوب المسلمين أنفسهم ، ليصرفوهم عن الإسلام فى الواقع بعد أن فشلوا فى تنصيرهم على يد المبشرين ! [1]

وحين جال الاستعمار الصليبي جولة فى العالم الإسلامى ، كان الانحراف فى المجتمع المسلم قد أخذ مداه ، وكانت قد وجدت تلك الأفكار الغريبة ـ التى لم توجد قط من قبل فى أى عصر من عصور الإسلام فى رفعته أو هبوطه ـ الأفكار التى تقول : ما للدين ونظام والمجتمع ؟ ما للدين والاقتصاد ؟ ما للدين وعلاقات الفرد بالمجتمع وبالدولة ؟ ما للدين والسلوك العملى فى واقع الحياة ؟ ما للدين والتقاليد ؟ ما للدين والملبس ـ وخاصة ملابس المرأة ؟ ما الدين والفن ؟ ما للدين والصحافة والإذاعة ، والسينما والتليفزيون ؟ وباختصار : ما للدين والحياة ؟ ما للدين والواقع الذى يعيشه البشر على الأرض ؟ !

وكان قد وجد المسلم الذى يقول : أنا مسلم مادمت أصلى وأصوم ، ولكن لا علىّ أن آخذ نظامى الاقتصادى من أية فكرة على الأرض غير إسلامية ، وآخذ أفكارى وتقاليدى من أى نظام على الأرض غير مسلم .

وكانت قد وجدت المسلمة التى تقول : أنا مسلمة ما دامت نيتى حسنة . . ولكن لا علىّ أن أخالط الشبان وأخرج معهم ، ولا علىّ أن

---

(١) فى الفصل القادم بيان لذلك كله من ألسنة المبشرين أنفسهم !

ألبس أحدث أزياء الموضة ولو كانت عارية الصدر أو الظهر أو الذراعين أو الساقين . . أو عارية البدن كله إلا قليلا على شاطىء البحر . . ولا علىّ أن أتزين بكل أنواع الزينة .. ولا علىّ أن أرقص فى الحفلات إذا اقتضى الأمر .

وفوق هذا وذلك كان قد وجد « المسلم » « والمسلمة » اللذان ينسلخان من دينهما علانية ، ويعلنان أن الدين رجعية وجمود وانحطاط وتأخر .. ينبغى تحطيمها « لتنهض ! » الأمة وتخطو إلى الأمام !

وكان ذلك هو حصيلة الجهد الجبار الذى بذله الاستعمار الصليبى فى العالم الإسلامى خلال قرنين كاملين من الزمان ، ولكنه لم يكن يعمل وحده .. فقد كانت إلى جانبه — فى العالم كله — تيارات مادية منحلة ، تنسلخ من الدين وتندد به وتدعو إلى حيوانية بشعة لا مثيل لها من قبل بهذه الضراوة ، تسند هذا الانحلال الشنيع بنظريات « علمية ! » سيكلوجية واجتماعية ، وتضيف إليها أسطورة ضخمة اسمها «التطور» !

من هذه وتلك حدث أكبر انحراف فى تاريخ الإسلام .

وفى الفصلين القادمين بيان لكيد الاستعمار الصليبى من ناحية ، والتيارات العالمية من ناحية . ونبدأ بالكيد الصليبى فى داخل العالم الإسلامى ، وهو ما سميناه « عوامل محلية » .

عوامل محلية

بدأت بالحملة الفرنسية على مصر صفحة جديدة فى التاريخ الإسلامى ..
صفحة سيئة .

لقد هجمت الجيوش الصليبية من قبل على العالم الإسلامى هجمات متكررة .. ثم ردت مدحورة فى كل مرة ، مهما كان مدى لبثها فى بعض الأراضى الإسلامية، ومهما كانت الخسائر التى تكبدتها الجيوش الإسلامية فى صد العدوان وطرد المعتدين .

وفى هذه المرة جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر .. ثم فى النهاية ثار عليها الشعب واضطرتها الظروف إلى الرحيل .. ولكن شيئاً ما كان قد تغير ما بين هذه الحملة وسابقاتها .. فى الأسباب والنتائج سواء .

إن الهزيمة الحربية النكراء التى أوقعها نابليون بجيوش المماليك شمالى القاهرة لم تكن فى الحقيقة هزيمة جيوش فحسب ، ولكنها كانت هزيمة عهد من العهود الإسلامية ؛ وهزيمة للفكرة التى يمثلها ذلك العهد . هزيمة عميقة موغلة فى النفوس .

لقد صدمت الهزيمة نفوس المسلمين وهزتها هزة عنيفة . . مع أنها لم تكن أول هزيمة حربية فى التاريخ . فمن قبل ارتدت الجيوش

الإسلامية مرات أمام هجمات الصليبيين . ولـكن المسلمين فى كل مرة كانوا يحسون أنها هزيمة مؤقتة ، سببتها كثرة الجيوش الغازية أو مفاجأتها للمسلمين على غرة . وكان فى حس المسلمين دائماً أنها فترة قصيرة ريثما تستعد الجيوش الإسلامية وتتدفق على خطوط القتال . . ثم يأتى النصر من عند الله بعد أن تتهيأ النفوس للمعركة والفداء .

وكان ذلك يحدث بالفعل فى كل مرة . .

يهب المسلمون وتتدفق الجيوش فى حمية فائرة دفاعاً عن العقيدة . . ويأتى نصر الله كسابق وعده للمؤمنين .

ومن ثم كان المسلمون يحافظون دائماً على استعلائهم ، حتى والهزيمة حائقة بهم ، فما كان يخالجهم الشك فى أنهم الأعلون . وأنهم فى النهاية هم المنتصرون .

وكان تـكرار النصر بعد كل هزيمة مؤقته يؤكد هذا المعنى فى نفوسهم توكيداً ، ويرسخ فى شعورهم الاستعلاء بالإيمان ، والاعتزاز بأنهم مسلمون . وكانوا ينظرون إلى الجيوش الغازية — مهما كانت قوتها وعدتها وعتادها — على أنها مجموعة من البرابرة المتأخرين ، الذين لا يعرفون الله حق معرفته ، ومن ثم فهم مخلوقات أدنى منهم ، ولو خدمتهم ظروف المعركة فترة من الوقت وغلبتهم على المسلمين .

وكانوا يندون تنديداً عنيفاً بتقاليدهم المنحلة وأخلاقهم الفاسدة ،

وكان من أشد ما ذكره المقريزى فى التنديد بهم أنهم قوم فاقدو الرجولة ، فتجد الواحد منهم يصحب امرأته فى الطريق حاسرة الوجه والصدر والذراعين فيقابلهما صديق لزوجته ، فيتنحى الزوج ليترك امرأته وصديقها يتبادلان الحديث ، حتى إذا انتهيا عاد فتأبط ذراعها وسار فى الطريق !

وكان هذا بطبيعة الحال دنسا وانحلالا خلقياً فى نظر المسلمين ، وفقداناً لمعانى الشرف فى ذلك المجتمع الغربى ، لايسيغونه هم ، ولا يكادون يتصورون أنه ممكن الحدوث[1] .

وكذلك ظلت العقيدة مستعلية فى نفوس المسلمين ، وظلوا يحسون بالعزة التى قررها الله لذاته — سبحانه — ولرسوله وللمؤمنين ، حتى فى ساعات الحرج والكرب حين كانت جيوش الصليبيين تتدفق كالسيل من الجرف المنهار . وكانوا يحسون أن كل تقاليد غير تقاليدهم لوثة لا ينبغى أن تصيبهم ، ورجس لا ينبغى أن يدنس أرض الإسلام .

* * *

ولكن الأمر لم يكن كذلك بعد الحملة الفرنسية . .

كانت العقيدة راسخة فى نفوس المسلمين . نعم . ولكنها

(١) انظر كيف انقلب الميزان فى نفوس المسلمين بعد ذلك فصاروا يرون هذا الدنس ذاته تقدما ورقيا وروحا اجتماعية عالية !

كانت — تحت الحكم التركى — قد جمدت وتحجرت كما قلنا فى الفصل السابق . ولم تعد لها مرونتها الحية التى كانت تتسم بها فى جميع العصور . وتحولت إلى مجموعة من التقاليد — المقدسة المظهر — التى لا تحمل فى طياتها رصيداً حقيقياً كبيراً من الحركة الحية الفاعلة فى عالم الواقع .

ثم كانت الهزيمة الحربية التى وقعت بالمماليك على يد نابليون فى امبابة ، إيذانا بالهزيمة الداخلية . . هزيمة العقيدة فى داخل النفوس .

لقد رُوِّع المسلمون بمدافع نابليون . . وبدت لهم سيوف المماليك هذراً فارغا إزاء تلك المدافع الجديدة التى لم يكونوا يعرفونها ، أو يتصورون وجودها فى يد الأعداء .

وانقلب ميزان القوى انقلاباً عنيفاً فى نفوسهم .

فتلك هى المرة الأولى التى تنهزم فيها جيوش المسلمين «عن جدارة» وتتغلب جيوش الصليبيين لأنها تملك « قوة » حقيقية من العتاد والفن الحربى و «المعرفة» لا يملكها المسلمون .

ولقد كان ممكناً مع كل ذلك ألا يتغير الميزان فى داخل النفوس . كان ممكناً أن تصمد النفوس للهزيمة ، ريثما تتجمع للانقضاض من جديد .. كما حدث مرات كثيرة من قبل . ولكن «الرصيد الداخلى» للعقيدة فى تلك الفترة لم يكن من القوة بحيث يصمد للصدمة ويتجمع من جديد .

حقاً . . لقد قام الشعب بمقاومة باسلة للحملة الفرنسية . وثارت

القاهرة بزعامة « رجال الدين » وتأثيرهم الروحى . . وحدثت بطولات عجيبة أروعها بطولة «الفتى الصغير» فى الصعيد ، الذى ظل بمفرده يدلف كل ليلة إلى معسكر الأعداء ، فيدخل مخزن الأسلحة ، ويستولى على بنادق الفرنسيين ، ويعود سابحاً فى الترعة إلى أهله ليتسلحوا بها فى مقاومة المحتلين . حتى إذا بان النقص فى الأسلحة ترصد الحراس للمتسللين وهم يظنونهم عصابة هائلة ، فإذا بهم يفاجأون بهذا الصبى وحده يصنع هذا الصنيع ! وانقضوا عليه يحاولون القبض عليه فقاوم حتى انكسرت ذراعه ، وحملوه إلى قائد الحملة (ديزيه) فلما رآه أخذ بشجاعته وبطولته ، وعرض عليه أن يتبناه فرفض لأنه كافر . فعرض عليه أن يتركه على ألا يعود إلى سرقة السلاح فرفض أن يعده بذلك مادام الكفار باقين فى البلاد ! وأخيراً أطلق سراحه على أن تشدد الحراسة على السلاح !

حقا . . لقد حدث كل ذلك . ولكنه كان أشبه بالأعمال «الفردية» الفدائية . أما «الكيان» الحقيقى للدولة المسلمة المقاتلة ، التى تنظم القتال وتجيش الجيوش ، وتقف للغزاة بوصفها «دولة الإسلام» . . أما ذلك كله فكان قد ذاب فى معركة إمبابة ، ولم يعد له وجود .

وأحس المسلمون بالهزيمة حتى وهم يرون الغزاة ينسحبون .

* * *

لم تكن الهزيمة الحقيقية هى هزيمة الحرب .

فقد وضع نابليون فى فترة إقامته فى مصر « قانونا » جديداً يُحكم به المسلمون غير شريعة الله . قانونا مستمداً من التشريع الفرنسى . وحصر تشريع الله فى أمور « الأحوال الشخصية » من زواج وطلاق وميراث . . .

وكانت تلك هى المرة الأولى فى تاريخ المسلمين .

المرة الأولى التى يحكمهم فيها قانون غير قانون الله ، يضعه وينفذه قوم غير مسلمين !

لقد كان الصليبيون يدخلون الأراضى الإسلامية أحيانا ، ويبقون فيها فى بعض الأحيان سنوات ، بل وصل بهم الأمر قبيل صلاح الدين أن يقيموا لهم دويلات على شاطىء البحر الأبيض فى بلاد الشام . ولكنهم لم يجرؤوا قط فى أية مرة أن يضعوا قانونا من عندهم يحكمون به المسلمين . فقد كانوا فى كل مرة غزاة انتهبوا قطعة من الأرض ، ولم يكونوا قط «دولة» حاكمة مسيطرة فى الأرض .

وفى هذه المرة كانوا – لأول مرة – دولة حاكمة فى أرض الإسلام، بعد أن أطاحوا بالدولة المسلمة ، وذوبوها فى ميدان القتال .

وكان هذا بدء الهزيمة الحقيقية . . هزيمة العقيدة .. وبدء انحسارها فى عالم الواقع ، وانحسارها – من ثم – فى داخل النفوس .

* * *

وفى ظل هذه الهزيمة وتلك كان «الانبهار» الذى أحدثته الحملة الفرنسية فى نفوس المصريين . انبهار بقوة السلاح أولا ، وانبهار «بالعلم الغربى» الذى حمله رجال البعثة المرافقة للحملة ، وانبهار بالمطبعة التى جاء بها نابليون إلى مصر ، وانبهار بالتنظيمات التى أحدثها . . وفى كلمة واحدة انبهار بكل ما جاء من «الغرب» وكل ما ليس بإسلام ! !

وكانت هذه هى الهزيمة الحقيقية الكاملة ، التى مهدت لكل ما أحدثه الاستعمار الصليبى بعد ذلك من تدمير مخرب فى حياة المسلمين وعقيدتهم ، وأفكارهم ومشاعرهم ، وسلوكهم فى واقع الحياة .

لذلك لم يكن طرد الفرنسيين من مصر أو انسحابهم حدثا حقيقيا فى عالم الواقع ، بعد هذه الهزيمة الداخلية التى خلقتها الحملة فى نفوس المسلمين !

* * *

وهنا يجدر بنا أن نقف وقفتين قصيرتين قبل أن نمضى فى استعراض التاريخ :

فقد حرص الاستعمار الصليبى أولا — وجاراه فى ذلك المؤرخون المسلمون — على إخفاء العنصر الصليبى إخفاء كاملا من الحملة الفرنسية على مصر ، وما تلاها من الاستعمار الغربى على نطاق واسع فى بلاد المسلمين . بل لقد وصل الأمر — فى سبيل إخفاء القصد الصليبى

من الاستعمار الحديث كله — إلى حد الزعم بأن الحروب الصليبية ذاتها لم تكن صليبية (! !) وإنما كان الدين فيها ستاراً يخفى المطامع الاقتصادية ! وتلوك هذا الزعم من ورائهم أفواه « مسلمة ! » يدور أصحابها فى طاحونة الاستعمار مغمضى العينين فى بلاهة ، أو . . لقاء أجر معلوم ! !

وحرص الاستعمار الصليبى ثانياً — وجاراه فى ذلك المؤرخون المسلمون — على القول بأن الحملة الفرنسية على مصر كانت هى الخير والبركة ، لأنها أيقظت المسلمين من سباتهم ، فأفاقوا يتطلعون إلى « النهضة » . إلى « القوة » . إلى « التقدم » . . إلى « الأخذ بوسائل الحضارة الحديثة » . . وباختصار : أيقظتهم إلى الخير فى كل اتجاه .

فأما الزعم الأول فلسنا نحن الذين نرد عليه ! فنحن متهمون كيفما كان الرد !

وإنما يرد عليه الكتّاب المسيحيون أنفسهم ، فى كتبهم التى يؤلفونها لتقرأ هناك . . ويطلعّ عليها من يريد الاطلاع .

« روم لاندو Rom Landow » مؤلف مسيحى معاصر ؛ يعيش فى أحداث القرن العشرين ، بعقلية القرن العشرين — تلك العقلية التى يقال لنا هنا فى الشرق إنها قد تحررت من سخافات الدين والتعصب الدينى ، وليست مثلنا متأخرة جامدة رجعية — وهو يكتب

عن هذه الأحداث فى الشمال الأفريقى خاصة . وله كتاب سماه « مأساة مراكش The Moroccan Drama جاء فيه فى ص ٣١٠ :

« ويقول كلوسترمان وريتزر من رجال البرلمان الفرنسى إن مسيو بيدو وزير خارجية فرنسا كان ينظر إلى الحوادث الجارية فى مراكش على أنها معركة بين قوى المسيحية والإسلام ولما حاولا إقناعه بوضع حد للحركة الهدامة فى مراكش ، أجاب قائلا : « هذه معركة بين الهلال والصليب ! »

فهل صدق الذين يدورون فى طاحونة الاستعمار الصليبى مغمضى العينين فى بلاهة ، كيف تنظر فرنسا إلى علاقتها بالمغرب . . الآن . . فى القرن العشرين . . المتحرر من خرافة الدين والتعصب الدينى ؟ ! وهل يستكثرون بعد ذلك أن تكون الروح الصليبية قائمة فى نفوس الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، القرن الذى لم يكن بعد قد « تحرر ! » من عصبية الدين ؟ !

هذا عن فرنسا . .

أما بقية أوربا الصليبية ، فهذا ولفرد كانتول سميث يقول عنها فى كتاب « الإسلام فى التاريخ المعاصر » الذى سبقت الإشارة إليه ، فى ص ١٠٩ — ١١٠ :

« إلى أن قام كارل ماركس وقامت الشيوعية ، كان النبى

(صلى الله عليه وسلم) (يقصد الإسلام بطبيعة الحال) هو التحدى الحقيقى الوحيد للحضارة الغربية الذى واجهته فى تاريخها كله . وإنه لمما يستحق التذكر : أن نتذكر كم كان هذا التحدى حقيقياً ، وكم كان يبدو فى وقت من الأوقات تهديداً خطيراً حقا .

• « لقد كان الهجوم مباشراً ، فى كلا الميدانين الحربى والعقيدى . وكان قوياً جداً . ولا شك أنه بالنسبة للمسلمين يبدو أنه الحق والصواب ، وأنه الأمر الطبيعى والمحتوم ، أن يمتد الإسلام كما امتد . ولكن الأمر يختلف بالنسبة لمن يقع خارج نطاق الإسلام ، الذى لم يكن يرى فيه شيئاً من ذلك كله ، والذى كان التوسع الإسلامى يقع على حسابه . وقد كان هذا التوسع إلى حد كبير على حساب الغرب . فقد فقدت المسيحية دفعة واحدة « أجمل مقاطعات الإمبراطورية الرومانية » لتتسلمها منها القوة الجديدة ، وكانت فى خطر من ضياع الإمبراطورية بكاملها . وعلى الرغم من أن القسطنطينية لم تقع — تماما — فى يد الجيوش العربية كما وقعت مصر وسوريا ، فقد استمر الضغط عليها فترة طويلة . وفى موجة التوسع الإسلامى الثانية وقعت القسطنطينية بالفعل سنة ١٤٥٣ ، وفى قلب أوربا المفزعة ذاتها أحاط الحصار بفينا سنة ١٥٢٩ بينما ظل الزحف الذى بدا عنيدا لا يلين ، مستمراً فى طريقه . وحدث

ذلك مرة أخرى فى وقت قريب لم يتطاول عليه العهد فى سنة ١٦٨٣ ، وإن وقوع تشيكوسلوفاكيا فى قبضة الشيوعية عام ١٩٤٨ لم يكن له قط فى العصر الحديث ذلك الفزع فى نفوس الغرب المتهيب ، كما كان لذلك الزحف المستمر قرنا بعد قرن ، من تلك القوة الضخمة المهدِّدة التى لا تكف ولا تهدأ ، ويتكرر انتصارها مرة بعد مرة .

« وكما هو الأمر مع الشيوعية ، كذلك كان التهديد والانتصارات (الإسلامية) قائمين فى عالم القيم والأفكار أيضاً . فقد كان الهجوم الإسلامى موجها إلى عالم النظريات كما هو موجه إلى عالم الواقع . وقد عملت العقيدة الجديدة بإصرار على إنكار المبدأ الرئيسى للعقيدة المسيحية ، التى كانت بالنسبة لأوربا الاعتقاد السامى الذى أخذت تبنى حوله — فى بطء — حضارتها . وكان التهديد الإسلامى موجها بقوة وعنف ، وكان ناجحاً نجاحاً مكتسحاً فى نصف العالم المسيحى تقريباً . والإسلام هو القوة الإيجابية الوحيدة التى انتزعت من بين المسيحيين أناساً دخلوا فى الدين الجديد وآمنوا به .. بعشرات الملايين .

« وإنه لمن المشكوك فيه أن يكون الغربيون — حتى أولئك الذين لا يدركون إطلاقا أنهم اشتبكوا فى مثل هذه الأمور — قد تغلبوا قط على آثار ذلك الصراع الرئيسى المتطاول الأمد . . .

أو على آثار الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الحرب «العقيدية» العدوانية المريرة » .

فهل صدق الذين يدورون في طاحونة الاستعمار الصليبي مغمضي العينين في بلاهة ، كيف تنظر أوربا إلى العالم الإسلامي حتى هذه اللحظة ، وما هي الدوافع الحقيقية الأصيلة وراء هذ الاستعمار ؟ !

حقيقة إن الاستعمار الأوربي — المدفوع قطعا بدوافع اقتصادية — لم يقتصر على العالم الإسلامي ، وإنما استعمر كل أرض استطاع أن يغتصبها من أصحابها في الشرق أو الغرب . ولكن هذه الحقيقة لا يجوز أن تلهينا عن الحقيقة الأخرى وهي أن الدافع الصليبي كان راسخا وأصيلا في اتجاه الاستعمار الأوربي إلى العالم الإسلامي، وأن الدافع الاقتصادي لم يكن وحده هو المسيطر على مشاعر المستعمرين تجاه المسلمين ، بدليل كاف واضح ـ سنبينه في هذا الفصل ـ هو أنهم لم يكتفوا في العالم الإسلامي بالاستغلال الاقتصادي ، وإنما عملوا عملا جاداً متواصلا مصراً على تحطيم قواعد الإسلام ، وتوهين عراه في النفوس ، بينما لم يتعرضوا أي تعرض للهندوكية في الهند — مثلا — ولا للبوذية في الصين ، وهما من الوجهة العدديه أضعاف المسلمين !

* * *

هذا بالنسبة للنقطة الأولى ، الخاصة بالهدف الصليبي في الحملة

الفرنسية على مصر ، الذى ينبغى أن يكون قد اتضح — فيما أحسب — فى نفوس القراء ، والذى يفسر لهم — فيما أحسب كذلك — سر وضع القوانين « المدنية » ليحكم بها المسلمون فى مصر . . بمعزل عن شريعة الله.. وحصر هذه الشريعة فى «الأحوال الشخصية» للمسلمين!

أما النقطة الثانية ، الخاصة بالخير والبركة العميمة التى حلت بمصر والعالم الإسلامى نتيجة هذه الحملة . . فتدور حولها كذلك فى نفوس المسلمين أوهام وأساطير ! بما فى ذلك «المؤرخون» المسلمون المحدثون !

حقيقة إن الحركة « العلمية » استيقظت على « الصدمة » التى أصابت المصريين نتيجة الهزيمة . . ولكن هذا لا يُرجع « الفضل » إلى الحملة الفرنسية المستعمرة الغاصبة ! ومفهوم جداً أن يقول الأوربيون ذلك . أما واجبنا نحن حين نؤرخ فهو أن نضع « النوايا » فى الحساب. فهل كان غرض فرنسا أن « تحضر » مصر وتعلمها ؟ أم كان غرضها أن تقتل شخصيتها و « تفرنسها » كما حاولت أن تصنع فى تونس والجزائر ومراكش ، وكل بلد دنسته أقدامها بالاستعمار ؟

ومن جهة أخرى . . ماذا كانت النتيجة العملية للحملة الفرنسية بالنسبة لمصر الإسلامية ؟ هل كانت هذه « اليقظة » التى حلت بمصر ، قائمة على مقوماتها الطبيعية ، وجذورها الحقيقية ، وموروثاتها ومقدساتها ،

أم قامت على أنقاض هذا كله ، لتخلق من مصر بلداً آخر بعيداً عن الإسلام ، أو . . منسلخا من الإسلام ؟

ومن جهة ثالثة . . يغفل أولئك « المؤرخون » حقائق التاريخ التى وقعت بالفعل ، لا التى كانت محتملة الوقوع !

فمن قال إن الحملة الفرنسية على مصر هى المفتاح « الوحيد » للبركة والخير ، الذى كان يمكن أن يقع فى يد المسلمين فيوقظهم إلى ما هم فيه من جهالة وجمود وتأخر ، ويدفعهم إلى الحركة الحية من جديد ، حتى توضع حولها كل هذه الهالات التى تدرس للتلاميذ فى المدارس والطلاب فى الجامعات ؟ !

ومتى حدث فى تاريخ الإسلام أن تركه الله يذوى ويموت ، دون أن يبعث فيه من يوقظه من سباته ويعيده للحركة الحية من جديد ؟

وما نظرة أولئك المؤرخين إلى الحركة الوهابية التى قامت تهدف إلى تنقية الإسلام من الخرافة المتعفنة التى شاعت فى أفكار المسلمين باسم الإسلام ، والحركة المهدية التى قامت تهدف إلى تخليص المسلمين من النير الإنجليزى الذى أحاط بعنق مصر فى شمال الوادى مع خضوعها اسميا للخليفة العثمانى ، ثم تخليص العالم الإسلامى من النير التركى . وغيرهما من الحركات الإسلامية التى تهدف كلها إلى تصفية الإسلام ورفع الظلم

الاجتماعى والسياسى والفكرى والروحى الواقع على المسلمين ، وبعث الإسلام من غفوته ليؤدى دوره فى الواقع الحى للبشرية ؟

أم البعث لا يكون بعثا حتى يجىء على أيدى المستعمرين من فرنسيين وغير فرنسيين ؟

تلك — على أى حال — من آثار السموم التى وضعها الاستعمار الصليبى فى نفوس المسلمين !!

* * *

وما نريد أن ننكر دلالة التاريخ . .

فقد كانت الهزيمة قائمة بالفعل فى نفوس المسلمين يوم جاءت الهزيمة الحربية فى الميدان .

ولكن ذلك — كما قلنا — لم يكن معناه أن الإسلام كان قد انتهى وآذن بالزوال .

فقد احتاج الاستعمار إلى جهود مضنية للاستيلاء على العالم الإسلامى استغرقت قرنا من الزمان ، واحتاج إلى قرن آخر لمحاولة تقويض الإسلام من الداخل . . من مكمن العقيدة فى داخل النفوس .

وهذا وذاك بجانب الانتفاضات الحية للإسلام فى شتى بقاع المسلمين قبل الاستعمار وفى أثناء الاستعمار .

وذلك كله دليل على مدى قوة هذه العقيدة ، ومدى مقاومتها

للأحداث رغم كل ما أصابها من هزات مدمرة على مدار التاريخ .

ونريد فى الصفحات التالية أن نتتبع ذلك الجهد الذى قام به الاستعمار الصليبى فى أناة وتدبر ، وكيد منظم مدروس ، ليحاول تقويض الإسلام من الداخل ، مستشهدين فى هذا العرض بأقوال المبشرين والمستعمرين أنفسهم ، الذين هم فوق مستوى الشبهات فى هذا المجال !

* * *

جاء محمد على إلى مصر واليا من قبل الأتراك . . يُسرّ فى نفسه الاستقلال عن « الخلافة » التركية فى الآستانة ، ولكنه لا يصحو — أو لا يهتم — بالنفوذ الفرنسى الذى يتغلغل معه فى البلاد !

لا يصحو — أو لا يهتم — بأن فرنسا تحتضنه ، وتشير عليه ، وتضع له مشروعات عمرانية ، وتساعده فى تنفيذها ، لأهداف بعيدة . . أبعد من أهدافه هو البعيدة .. التى ظن نفسه بارعا أشد البراعة وهو يعمل لها من وراء « الخلافة » !

كانت فرنسا تحتضن محمد على ، وتشجعه على الاستقلال عن الخلافة ، لأن ذلك مثل « طيب ! » يحتذى فى بقية العالم الإسلامى ، فيتفكك هذا العالم إلى دويلات صغيرة ، يشرف عليها النفوذ الغربى ، ويتبنى « حركة الإصلاح » فيها . . الإصلاح المقترن بهدم المقومات الإسلامية ، وسَلْخِ المسلمين من عقيدتهم ، وإخضاعهم للنفوذ الصليبى

الواقف بالمرصاد ، يتحين الفرصة لإرواء أحقاده الصليبية المسمومة .

وهنا نقطة تلتبس على أفكار المسلمين وهم يستعرضون التاريخ . .

تكن تلك « الخلافة » فى أواخر أيامها — فاسدة ظالمة متجبرة ؟ ألم تكن مظهراً خاويا لا يخفى وراءه سوى الخرافة والجهالة والظلم ؟ ألم تكن قد بعدت عن روح الإسلام ؟

فكيف لا يكون الخروج عليها إذن عملا طيبا يستحق التشجيع ويستحق الإشادة والتسجيل !

هل كان يطلب من المسلمين فى أقطار الأرض أن يُبْقُوا على الخلافة بعد ما صارت إليه لمجرد كونها رمزاً للإسلام ، وهم يذوقون منها الذل والهوان ، والرجعية والتحجر، والوقوف فى وجه كل إصلاح ؟

ولنفرض أن للاستعمار هدفاً خبيثاً من هدم الخلافة وتقطيع أوصال العالم الإسلامى، فهل نسكت نحن على مظالم الخلافة و نقتل أنفسنا بالتحجر والرجعية من أجل أن خروجنا على الخلافة سيحقق للاستعمار هذا الهدف الخبيث ؟!

هنا تلتبس المسألة على أفكار المسلمين . . وهى لا تلتبس عليهم إلا بسبب مادسه الاستعمار الصليبي فى أفكارهم ، وألح فى تثبيته ، من أنه لم يكن هناك إلا أحد أمرين : إما الاستمرار فى الخضوع المذل لمظالم الخلافة . . وإما الانفصال عنها فى حركات استقلالية . . وليكن بعد ذلك ما يكون . . بل ليكن دخول النفوذ

الغربى فى البلاد « المستقلة » هو الثمن الذى تدفعه تلك البلاد للتخلص من ظلم الخلافة وتجبر الأتراك الحاكمين . . ثم تزيد الدعاية الاستعمارية الأمر لبسا فى أذهان المسلمين ، حين تقول لهم إن النفوذ الغربى كان معناه الإصلاح والعمران ونشر الحضارة والتعليم . . وكلها خير وبركة كان يقف فى طريقها استمرار الخلافة فى حكم المسلمين .

وهنا مغالطة مركبة . .

فليس صحيحا أولا أن الأمر كان على هذا النحو : إما الرضى بالمظالم وإما تقطيع أوصال العالم الإسلامى على هذا النحو المدمر للإسلام والمسلمين .

وليس صحيحا ثانيا أن الطريق الوحيد للإصلاح كان دخول النفوذ الصليبى فى بلاد المسلمين .

ونعود إلى الحركة الوهابية والحركة المهدية اللتين حرص الاستعمار الصليبى حرصا شديداً على كبتهما وقتلهما قبل أن يمتد نفوذهما إلى العالم الإسلامى ، وشغّل فى ذلك محمد على وأبناءه ، بطريق مباشر أو غير مباشر .

لقد كانت كلتاهما حركة إصلاح شاملة ؛ كانت أولاهما تبتغى إصلاح العالم الإسلامى كله من الظلم والخرافة ، وتحرير المسلمين من النير التركى بكل ما يحمل فى طياته من جمود وتحجر ، وكانت الثانية

تهدف إلى تخليص شمال الوادى من الاحتلال الإنجليزى ، ثم تخليص العالم الإسلامى من النير التركى . كانت كلتاهما تحاول أن يعيش المسلمون فى جو إسلامى نظيف ويستعيدوا كيانهم التاريخى المجيد ، مع المحافظة على أوصال العالم الإسلامى من التقطيع ، والمحافظة على كيانه من النفوذ الغربى الصليبى أن يعيث فساداً فيه .

ولذلك أسرعت أوربا الصليبية توغر عليهما صدر الحكام الأتراك الذين كان الكثير منهم عملاء للصليبية ، وتستغل محمد على وأبناءه فى إخماد الحركتين الواحدة فى أثر الأخرى . . بينما راحت فى الوقت ذاته تشجع كل حركة « استقلالية » تقوم على أساس العصبية الإقليمية ، ولا تقوم على أساس الإسلام !

وهذا ماينبغى أن يكون مفرق الطريق فى تفكير المسلمين بين الإبقاء على الظلم وبين القضاء على هذا الظلم مع الإبقاء على وحدة العالم الإسلامى وقوة العقيدة الإسلامية . . وهو حل كان يأباه الاستعمار الصليبى من قبل ، وما زال حتى اليوم يأباه !

* * *

واستمر النفوذ الفرنسى يتوسع فى مصر — ويتوسع فى سوريا ولبنان — حتى صارت له « مدرسة » فكرية ، تربى فيها فى مصر وفى غيرها من كانوا يقولون إن فرنسا هى وطنهم الثانى وأمهم الرءوم !

ومن كانوا يقولون إن مصر لم تكن قط جزءاً من الشرق ! وإنما كانت دائما جزءاً من حوض البحر الأبيض المتوسط (أى الذى تقع عليه فرنسا !) وأن روابطها الفكرية والروحية والثقافية كانت دائما مع أمم البحر الأبيض وليست مع أمم الشرق (أى ليست مع الإسلام الذى جاء من قلب الجزيرة العربيــة ولم يجىء من شواطىء البحر الأبيض ! !) .

وارتفع هؤلاء وهؤلاء إلى مراكز التوجيه — بدفع الاستعمار الصليبي الفرنسى المستمر — ليحوّلوا الأجيال الجديدة إلى فرنسا ، أو يحولوها على أى حال بعيداً عن الإسلام !

ولــكن فرنسا — مع ذلك — لم تستطع أن تحقق كل أحلامها القديمة التى دفعت بها إلى احتلال مصر أيام حملة نابليون ، والتى ظلت تخايل لها بعد ذلك فترة طويلة من الزمان . . فقد كانت المطامع الإنجليزية أسرع وأجسر ، وجاء الاحتلال البريطانى إلى مصر عام ١٨٨٢ ليبقى فيها نيفاً وسبعين من الأعوام .

وهنا تبدأ الفترة العظمى للنشاط الصليبي فى مصر ، تعاصرها فترة النشاط الصليبي الفرنسى فى سوريا ولبنان والشمال الأفريقى فى تونس والجزائر ومراكش ، كما يعاصر الفترة الأخيرة منها امتداد النشاط الصليبي البرتغالى والدنمركى والهولندى والإيطالى . . . الخ . فى بقية بلاد الإسلام .

وفى تلك الفترة وضعت السياسة المرسومة المدبرة المنظمة للقضاء على العقيدة الإسلامية فى نفوس المسلمين .

* * *

لم يكن الأمر سهلا بالنسبة للاستعمار

فهذه العقيدة من الرسوخ والقوة وتعمق الجـذور بحيث تحتاج إلى جهد مضنٍ لاقتلاعها من جذورها ، أو لتوهين عراها فى النفوس . وقد صبر الاستعمار الصليبى على الجهد . . وأفلح فى نهاية المطاف .

أفلح . . حين استطاع أن يربى على سمومه أجيالا لا تعرف من الإسلام إلا اسمه . . وإلا أنه علاقة « بين العبد والرب » لاعلاقة لها بالسلوك العملى ، ولا علاقة لها بشئون المجتمع وشئون الحياة .

أو لا تعرف عنه إلا أنه رجعية وجمود وتأخر . . ينبغى الانسلاخ منها للّحاق بركب الحياة ! !

وهنا نمضى فى العرض الذى بدأناه ، معتمدين على وقائع التاريخ ، وعلى أقوال المبشرين والمستعمرين .

* * *

فى سنة ١٨٨٢ وقف المستر جلادستون رئيس الوزارة البريطانية فى مجلس العموم البريطانى يمسك بيده نسخة من المصحف ويقول لأعضاء

المجلس : « إنه ما دام هذا الكتاب باقياً فى أيدى المصريين ، فلن يستقر لنا قرار فى تلك البلاد » ! !

وهو كلام لا تحتاج دلالته إلى تعليق !

فالرجل يحس أن مبعث القوة فى هذا الشعب هو القرآن . هو الإسلام . وهو صخرة المقاومة التى يرتطم بها الاستعمار ويعانيها . . فيجب أن تتحطم . . يجب أن تزول .

وجاء دنلوب . . المتخرج فى كلية اللاهوت البريطانية ليرسم لمصر سياسة التعليم .

يا عجبا ! سياسة التعليم فى بلد مسلم . . يضعها قسيس ؟ !

نعم ! لينزع « هذا الكتاب » من أيدى المصريين . . وليستطيع الاستعمار أن يستقر فى هذه البلاد !

ووضع دنلوب سياسته المرسومة . . التى آتت فى النهاية ثمارها المرجوة منها ، على مهل وبطء ، كما هو شأن السياسة البريطانية فى كل مكان .

كان الأزهر هو مصدر العلم فى مصر ؛ كان الجامع والجامعة ، يؤمه المتعلمون من شتى الأنحاء — لا فى مصر وحدها ، بل فى العالم الإسلامى كله — لينالوا بركة الوجود إلى « جواره » . وليتلقوا فيه العلم والعرفان : « مجاورين » .

ولم يكن الأزهر فى ذلك الحين كائناً حياً صالحاً لتعليم الإسلام . فقد كان كـكل شيء فى أواخر العهد التركى مجموعة من الجمود والتحجر لا تصلح للحياة . .

ولـكن محاولات قوية كانت قد بدأت تبذل لإصلاح الأزهر وإحيائه ومعاونته على « التنوّر » من إظلامه الشديد .

وبصرف النظر عن النتائج التى كان يمكن أن ترجى من حركة الإصلاح هذه — بزعامة محمد عبده وأتباعه — فقد كان همّ الاستعمار الصليبى هو القضاء على الأزهر ، لأنه — فى نظر المسلمين على الأقل ، إن لم يكن كذلك فى الواقع — معقل العقيدة الإسلامية ، والمتّجه الذى تتجه إليـه أنظار المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهو — من ثم — مصدر من مصادر « الوحدة » الإسلامية ، الفـكرية والروحية والواقعية ، « ينبغى » أن يزول .

وكان هدم الأزهر بطريقة مباشرة أمراً لا يفـكر فيه الاستعمار البريطانى بطريقته الملتوية البطيئة الماكرة ، فقد رأى كـيف كانت حماقة الفرنسيين من قبل أيام الحملة الفرنسية ، حين استباحوا الأزهر لخيولهم ، سبباً مباشراً من أسباب ثورة الشعب ، ورأوا كذلك كـيف كانت حملات التبشير التى تهاجم العقيدة الإسلامية مهاجمة مباشرة تؤدى

إلى عكس المطلوب منها ، إذ تنبه المسلمين للخطر ، وتزيدهم استمساكا بالإسلام !

كلا ! لا يرتكب الاستعمار الإنجليزى هذه الحماقة . .

إنما يعمد إلى كيد بطىء الفعل ولكنه مضمون المفعول (١)

فتح دنلوب مدارس « حكومية » ابتدائية تدرس العلوم « المدنية » وتعلم اللغة الإنجليزية — لغة الاستعمار — وتخرج موظفين كتبية فى الدواوين التى يحتلها ويديرها الإنجليز . . يقبضون رواتب تعد بالجنيهات لا بالقروش !

ولم يكن الأمر فى حاجة إلى مزيد من الإغراء . فمن ذا الذى يبعث بابنه بعد اليوم إلى الأزهر — إلا الفقراء العاجزون عن دفع المصروفات — وهو يرى له المستقبل المضمون فى وظيفة الحكومة ، حيث « يرطن » بلغة السادة المستعمرين ؟

وانصرف الناس — القادرون — من ذوات أنفسهم عن الأزهر ، واتجهوا إلى مدارس الحكومة بعد الثورة الأولى التى ثارها الحس الباطنى المسلم على هذه المدارس « الكافرة » التى لا تعلم القرآن ولا تعلم الدين . . وأصبح هؤلاء المتعلمون « طبقة » جديدة ، تستمد طبقيتها من أنها من أبناء الأسر أولا ، ومن مركزها الاجتماعى فى وظيفة الحكومة

(١) من أمثلة الإنجليز : Slow but sure أى بطىء ولكنه أكيد !

ثانيا . . ومن التشجيع الظاهر والخفى الذى تلقاه من سلطات الاستعمار بعد هذا وذاك .

ولم يكن أولئك المتخرجون فى تلك المدارس « متعلمين » فى الحقيقة . إنما كانوا كما قلنا مجموعة من « الكتبة » لا يصلحون لغير هذه الوظيفة . لا يصلحون إلا لتلقى الأوامر من المدير الإنجليزى ، وتنفيذها فى عبودية كاملة ورعب وتقديس !

وما كان الانجليز فى ذلك الحين يجهلون أصول « التربية » الصحيحة ولا وسائل التعليم الحقة . ولا كانت مدارسهم فى انجلترا تدار بأساليب العبودية التى كانوا يديرون بها مدارس الحكومة فى مصر . ولكن السياسة التى رسمها دنلوب لم تكن تهدف إلى تخريج متعلمين ، وإنما تهدف إلى تخريج عدد من العبيد يؤمرون فيطيعون ، ويشار إليهم فينفذون . . بجانب الهدف الآخر الخفى الذى يتحقق فى ذات الوقت ، فى بطء أكيد العاقبة ، وهو تحويل الناس عن الأزهر ليذوى ويتضاءل ، ويموت فى نهاية المطاف .

فى تلك المدارس كان يدرس المقرر فى صورة واحدة ، من كتاب واحد مقرر . وما كان الإنجليز يجهلون أن الصورة الواحدة المحدودة تحدد تفكير الدارس وتقتل ملكة الابتكار فيه ، لأن الابتكار ينشأ من رؤية الشيء الواحد فى صور متعددة ومن زوايا مختلفة ، فيتعود

الذهن على التحوير والتبديل ، وينشأ عن ذلك الابتكار والتطوير .
وقد كانت مدارسهم فى انجلترا — فى ذلك الوقت ذاته — تربى تلاميذها على أن يطلعوا عل الموضوع الواحد فى مصادر مختلفة فيتربى فيهم حب الاطلاع من ناحية ، والقدرة على الابتكار والاختراع من ناحية . ثم يمتحنون فيما استفادوه من دراستهم لا فيما حفظوه عن ظهر قلب . ولكنهم — فى مصر — كانوا يحددون الأفهام والعقول، خوفا من أن تنشأ فيها القدرة على التفكير !

وفى تلك المدارس كان الناظر الانجليزى يحيط نفسه بجو من القداسة والرهبة ، كأنه إله يعبد ، يسرى فى النفوس منه الرعب ، وتتوجه إليه القلوب بالتوقير والتقديس ، وكانت تلك خير وسيلة — لا للتربية — وإنما لزرع العبودية فى النفوس .

وفى تلك المدارس كان يلقن التلاميذ أن مصر بلد متأخر لأنه زراعى ، لا يمكن أن تنشأ فيه الصناعة — عنوان التقدم — لأنه ليس فيه فحم ولا حديد . وأن أوربا على وجه العموم وانجلترا بصفة خاصة ، بلاد متقدمة لأنها بلاد صناعية ، لأن فيها الفحم والحديد .

وفى تلك المدارس لم يكن يدرس القرآن ولا الدين . . إلا نتفا متناثرة تضر أكثر مما تنفع . .

فبينما كانت المدارس التبشيرية التى يحميها الاستعمار ويمكن لها فى

الأرض ، تبدأ نشاطها اليومى بالصلاة فى كنيسة المدرسة ، والتوجه إلى الله بالدعاء المسيحى — بما فى ذلك التلاميذ المسلمون قسرا عنهم — فيرتبط الدين فى وجدان التلاميذ بالنشاط والتطلع ، والحياة الباكرة القوية المستشرفة ، كانت حصص القرآن والدين فى مدارس الحكومة توضع فى نهاية اليوم المدرسى ، وقد كلّ التلاميذ وملوا ، وحنوا إلى الانفلات من سجن المدرسة البغيض إلى فسحة الشارع أو رحب البيت ، وكانت هذه الحصص توكل إلى أسن مدرس فى المدرسة ، يسعل ويتفل ، ويمثل أمام التلاميذ ضعف الحياة الفانية المنهارة . . فيرتبط الدين فى وجدانهم بالعجز والفناء والشيخوخة ، كما يرتبط بالملل والضجر والنفور .

* * *

وتوسعت سياسة دنلوب ، فأنشأ بضع مدارس ثانوية تمد الموجة الصليبية خطوات إلى الأمام . .

مدارس تسير على النهج ذاته فى كل شىء . . ولا تدرس شيئاً عن حقيقة الإسلام !

فما التاريخ الإسلامى الذى يدرسه التلاميذ ؟

نزل الإسلام : ١ — فى قوم وثنيين يعبدون الأصنام فدعاهم إلى عبادة الله الواحد .

٢ — وكانوا يئدون البنات فنهاهم عن ذلك .

٣ — ثم دعاهم لنشر الدعوة فكانت الغزوات والفتوح التى انتهت بانتشار الإسلام فى البقاع التى يوجد فيها اليوم !

ومن ثم يكون الإسلام « منتهيا » قد فرغت مهمته ، ولم يعد له مهمة يؤديها فى واقع الحياة !

فأولا : لم يعد هناك أولئك الوثنيون عباد الأصنام الذين يدعوهم الإسلام إلى عبادة الله الواحد (وقد حجب الاستعمار أفريقيا !)

وثانياً : لم يعد أحد يئد البنات حتى يحتاج إلى دعوة الإسلام للقضاء على هذه الفعلة الشنيعة .

وثالثا : نشر الدعوة — أو الجهاد — قد توقف بحكم الظروف الدولية الحديثة ، ولم يعد له محل فى العالم الحديث .

أما الإسلام كقوة كونية انبعثت فى الأرض لتهدى الناس إلى النور . .

أما الإسلام كنظام يحكم الحياة البشرية من جميع أطرافها ويوجهها إلى الفلاح والخير . .

أما الإسلام كقوة فاعلة فى واقع الأرض . .

أما الإسلام كحضارة امتدت فى أقطار الأرض وأقطار الزمن أكثر من ألف من السنين . .

أما الإسلام كحركة علمية أضاءت وجه الأرض كله واستقت منها أوربا ذاتها لتكوّن نهضتها الحديثة . .

أما الإسلام كتنظيم اقتصادى وعدالة اجتماعية . .

أما الإسلام كحركة تحريرية ، حررت ضمير الفرد من الخرافة كما حررته من العبودية لغير الله ، وحررت جموع الناس من الظلم الذى يقع عليهم من فساد النظم أو فساد الأشخاص . .

أما الإسلام كشريعة أنزلها الله ليحكم بها الناس فى الأرض ، ولتنفذ وتطاع . .

أما هذا كله ، فلا شىء منه يدرس للطلاب فى المدارس . . وإنما يدرس الإسلام — على أكثر تقدير — كمجموعة من العبادات يؤديها الإنسان فيكون قد أدى كل ما عليه من « إسلام » !

أو يدرسونه مجموعة من الشبهات ! مجموعة من المظالم الفكرية والروحية والاجتماعية والسياسية ، تبيّنه فى نظر الناس شيئاً ضئيلا هزيلا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تبيّنه رجعية وجموداً وتأخراً ينبغى الانسلاخ منها فى قوة ، والتخلص من هذه السبة التى تسمى الدين .

وفى مكان هذا كله يدرسون لهم أوربا !

أوربا هى القوة . وهى الحضارة . وهى العلم . وهى العدالة

الاجتماعية . وهى الحرية والإخاء والمساواة . وهى التقدم الصاعد أبداً فى كل ميدان .

النظم الاجتماعية الحقة هى التى قامت فى أوربا . والنظم الاقتصادية الحقة هى التى ابتدعها الفكر الأوربى . والنظم الدستورية الصالحة هى التى صقلتها تجارب الأوربيين . حقوق الإنسان قررتها الثورة الفرنسية . والديمقراطية قررها الشعب الإنجليزى . والحضارة وضعت أسسها الإمبراطورية الرومانية .

وباختصار : أوربا هى العملاق الضخم الذى لا يقهر . والإسلام هو القزم الضئيل الذى عليه أن يتعبد هذا العملاق . . ليعيش !

* * *

ولم يكن ذلك كل شىء فى سياسة دنلوب القسيس .

لقد كانت اللغة العربية — وما تزال — مرتبطة بالإسلام فى نفوس المسلمين ، العرب منهم وغير العرب سواء .

فلابد إذن من تحقيرها والزراية بها ، حتى تنتقل الزراية والتحقير — بالطبيعة — إلى ما يرتبط بها من معانى الدين .

وليكن شخص معلم اللغة العربية هو موضع الزراية والتحقير . .

فبينما يقبض مدرس اللغة الإنجليزية أو الجغرافيا والتاريخ أو الرياضة اثنى عشر جنيها كاملة فى الشهر ، تساوى فى ذلك الزمان الحياة الرغيدة

والوفر الذى تتكون منه ثروات وأراض وبيوت . . يقبض زميله مدرس اللغة العربية الذى يقوم بالعمل معه فى نفس المدرسة ، ويأخذ جدولا مماثلا من الحصص أو أكثر .. أربعة جنيهات !

وفى الحال تتميز الطبقتان تميزاً شنيعا لا يقف عند حد .

فهذا موضع الاحترام فى المدرسة والمجتمع ، ينال مكانته الاجتماعية والاقتصادية .. ويتزوج من « البيوتات » ويربى أبناءه فى جو من الاستعلاء والترفع ..

وذلك يتأخر ويتواضع وينطوى على نفسه ، وتنزل مكانته الاجتماعية والاقتصادية .. ولايتسنى له أن يتزوج من أسرة كريمة .. ويربى أبناءه فى جو من الفقر والمذلة والهوان .. ويلقاه الناس فى كل مكان بالازدراء والنفور ..

أف ! هذا مدرس لغة عربية !

ولاتصيبه الضربة وحده فى واقع الأمر .. وإنما تصيب معه اللغة العربية والدين !

* * *

ولم يكن هذا كل شىء . . .

فمع الاستعمار الصليبى فى العالم الإسلامى كان التبشير يعمل على أوسع نطاق ممكن ، وفى قوة وإصرار وعنف ، لتقويض المفهوم الإسلامى

فى النفوس ، وزرع المفهوم المسيحى أو الأوربى بصفة عامة فى قلوب الناس بدلا من مفهوم الإسلام .

وأمامى كتاب « الغارة على العالم الإسلامى La Conquête du Monde Musulman » [1] يشتمل على حقائق مذهلة . . يذهل الإنسان إذ يراها تنشر بهذه الصراحة ، ويذهل إذ يرى الخطوط التى وضعها التبشير والاستعمار معاً مازالت عاملة فى العالم الإسلامى . والسموم التى وضعاها معاً مازالت سارية فى نفوس المسلمين !

إنها مأساة شنيعة . . أن يكون هذا الكيد كله قد دبر للمسلمين وهم فى غفلة من أمرهم ، أو وهم يضحكون فى بلاهة ، أو وهم يخبطون كفاً على كف فى تواكل بليد !

ثم مأساة شنيعة . . أن نرى آثار هذا الكيد كله عاملة فى جسم العالم الإسلامى اليوم ، فى أفكاره وسلوكه ، وأخلاقه وتقاليده . . . فيفرح بعضنا « بالتقدم » الذى أحرزناه ، ويغتم بعضنا للفساد الذى فسدناه . . ويظن هؤلاء وهؤلاء أنه « التطور » « الحتمى » قد أخذ

---

(١) ربما كان الأنسب ترجمة العنوان هكذا : « غزو العالم الإسلامى » ولكن هكذا ترجمه السيدان مساعد اليافى ومحب الدين الخطيب — القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ (هذا العام ١٣٨١ هـ) .

طريقه إلى العالم الإسلامى ، وأنه لا يمكن وقفه ، ولم يكن وقفه مستطاعا فى أى وقت من الأوقات . .

ويغفلان معاً — هؤلاء وهؤلاء — عما صنعه الاستعمار والتبشير فى عقول الناس ونفوسهم فى قرنين من الزمان !

حقاً إن « التطور » العالمى قوة ضخمة ، سواء اعتبرناه انحداراً أو رفعة ، وكان لا بد أن تصيب دفعته العالم الإسلامى رضى أم أبى ، وسنتكلم بالتفصيل عن آثاره فى الفصل القادم « تيارات عالمية » ؛ ولكننا نقول هنا إن الاستعمار الصليبى قد عمل ولا شك كثيراً « لإخضاع » العالم الإسلامى للموجة الكاسرة ، دون أن تتاح له القدرة على مقاومتها ، أو الوقوف منها موقفاً آخر غير موقف الخنوع والاستسلام .

ولو كان العالم الإسلامى فى قوته كما كان ، وفى استعلائه كما كان ، لكان له ولا شك موقف آخر من هذا « التطور » غير الخنوع له والاستسلام ، وغير الفرحة البلهاء « بالتقدم » ، والمسارعة إلى أخذ كل شىء يأتى من الغرب على أنه الشفاء من كل داء ، ولو كان هو السم وهو مبعث الداء ! . . ولكان له من البشرية كلها موقف آخر غير هذا الموقف الخانع المستسلم : موقف المنقذ من الهاوية التى تفغر فاها اليوم لتبتلع كل خير حصلته البشرية فى تاريخها الطويل !

سنعود إلى هذا فيما بعد . .

أما الآن فنقتطف من هذا الكتاب المذهل فقرات ذات دلالة . . وإن كان الكتاب كله فى الحقيقة يستحق القراءة كلمة كلمة ، لأنه لا توجد فيه كلمة واحدة بغير دلالة عجيبة شنيعة بشأن ما نحن فيه ! !

هذا الكتاب هو فى حقيقته عدد خاص من « مجلة العالم الإسلامى La Revue du Monde Musulman » التى تصدر فى فرنسا ، أصدرته قبل خمسين عاماً ، لعرض نشاط التبشير البروتستانتى فى البلاد الإسلامية ، وكتب مقدمته مسيو أ . لو شاتلييه A. Le Chatelier رئيس تحرير تلك المجلة عندئذ ، ليحمس الكاثوليك فى فرنسا ، ويستنهض همتهم ، لينشطوا فى التبشير من جانبهم ، مثيراً غيرتهم بالنجاح الباهر الذى أحرزه البروتستانت فى هذا الميدان . وجعلت المجلة عنوان هذا البحث La Conquête du Monde Musulman أى غزو العالم الإسلامى . وقد ترجمه السيدان مساعد اليافى ومحب الدين الخطيب عند صدوره مباشرة ، ونشراه فى جريدة المؤيد ، مقالات متتابعة ، ثم جمعاه بعد ذلك فى كتاب صدر فى القاهرة سنة ١٣٥٠ ﻫ أى منذ ثلاثين عاماً .

وهذا الكتاب — الذى صدر فى ذلك التاريخ البعيد — يعرض نشاط التبشير فيما يقرب من قرن — قبل تأليفه — ويعرض بالذات

أعمال المؤتمرات التبشيرية الكبرى التى قامت فى القاهرة سنة ١٩٠٦ وفى أدنبره بانجلترا سنة ١٩١٠ وفى لكنو بالهند ١٩١١ ، ويعطى فكرة واضحة جداً عن اتجاه التبشير فى العالم الإسلامى ووسائله وأهدافه . والزمن الطويل الذى مضى منذ تأليفه لا يفقده قيمته ، بل إنه على العكس هو الذى يعطيه أهمية زائدة ، لأنه يبين الخطوط الأساسية التى وضعت فى الماضى ، وتركت تعمل على مهل لتبلغ أهدافها ، وقد بلغتها فعلا ، وما تزال حتى اليوم سارية المفعول .. ويبين للمسلمين أن تاريخ الاستعمار الصليبى معهم طويل من قبل ، وأن الحاضر كله ليس إلا جولة من جولات الصراع ، يفصح عنها رجل مثل بيدو فى فرنسا حين يشير إلى معركة « الهلال والصليب » فى المغرب .. ويخفيها آخرون .

* * *

يقول شاتلييه فى مقدمته (والأقواس الشارحة من عندنا وكذلك الخطوط الموضوعة تحت بعض الكلمات لإبراز أهميتها) :

« قلنا فى سنة ١٩١٠ عندما كنا نخوض على صفحات هذه المجلة (مجلة العالم الإسلامى الفرنسية) فى موضوع السياسة الإسلامية (أى السياسة التى ينبغى أن تتبع تجاه الإسلام والبلاد الإسلامية) : ينبغى لفرنسا أن يكون عملها فى الشرق مبنياً قبل كل شىء على قواعد التربية

العقلية ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبت من فائدته . ويجدر بنا لتحقيق ذلك بالفعل أن لا نقتصر على المشروعات الخاصة التى يقوم الرهبان المبشرون وغيرهم بها (!) . . . فتبقى مجهوداتهم ضئيلة بالنسبة إلى الغرض العام الذى نتوخاه ، وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذى يكون تحت الجامعات الفرنساوية ، نظراً لما اختص به هذا التعليم من الوسائل العقلية والعلمية المبنية على قوة الإرادة (!) . وأنا أرجو أن يخرج هذا التعليم إلى حيز الفعل ليبث فى دين الإسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنساوية » !

هكذا يبين شاتلييه فى صراحة « الغرض العام الذى يتوخاه » ! وهو أن تُبَثّ فى دين الإسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنساوية . . أى تدس فى الإسلام التعاليم المسيحية الفرنسية ، لا عن طريق الرهبان المبشرين ـ فهؤلاء عملهم محدود ، لا يفى بالغرض الواسع المدى ـ وإنما عن طريق التعليم ، عن طريق فتح مدارس فرنسية فى العالم الإسلامى تبث هذه التعاليم ، وتدس هذه الأفكار . . وهذه المدارس ـ لكى لا ننسى ـ هى المدارس العلمانية ! ! وهى غير مدارس الرهبان والراهبات ، ذات الصبغة الدينية الصريحة !

ثم يقول فى نفس المقدمة :

« نعم ، إن غاية المدرسة اليسوعية (فى بيروت وهى من مدارس

الرهبان) وطريقة التعليم فيها تختلفان عن غاية وطريقة المدرسة الكلية الفرنساوية فى الأستانة (وهى من المدارس العلمانية) إلا أن النتائج كانت متقاربة من حيث تعميم التعاليم والأفكار التى تنشرها اللغة الفرنسية . ومن هذا يتبين لنا أن إرساليات التبشير الدينية التى لديها أموال جسيمة وتدار أعمالها بتدبير وحكمة ، تأتى بالنفع الكثير فى البلاد الإسلامية ، من حيث إنها تبث الأفكار الأوربية » .

ثم يمضى فى المقدمة فيستشهد بهذه الفقرة من كلام الأب زويمر (وهو مبشر بروتستانتى كان له نشاط فى نهاية القرن الماضى وأوائل هذا القرن فى الشرق الإسلامى ومصر خاصة، وهو منشىء مجلة العالم الإسلامى الإنجليزية) :

« إن لنتيجة إرساليات التبشير فى البلاد الإسلامية مزيتين : مزية تشييد ومزية هدم . أو بالحرى مزيتى تحليل وتركيب . والأمر الذى لا مرية فيه هو أن حظ المبشرين من التغيير الذى أخذ يدخل على عقائد الإسلام ومبادئه الخلقية فى البلاد العثمانية والقطر المصرى وجهات أخرى هو أكثر بكثير من حظ الحضارة الغربية منه » .

وهو كلام له خطورته بصفة خاصة . فهو يقرر صراحة أن التغيير الذى دخل على عقائد الإسلام ومبادئه الخلقية يرجع إلى نشاط التبشير - الذى يحميه الاستعمار ويمكّن له - أكثر مما يرجع إلى الحضارة الغربية بذاتها. وهذا يؤيد ما قدمنا به لهذه المقتطفات ، من أن موجة « التطور »

العالمية ــ أى الغربية فى الحقيقة ــ لم تكن بذاتها مستطيعة أن تصنع هذا الصنيع كله فى العالم الإسلامى ، فتدمر عقائده وأخلاقه ، لولا الاستعمار الصليبي الذى مهد لها ، ومكنها من تسديد الضربات القاصمة لصرح الإسلام . . وهو قول يعترف به المبشرون الغربيون أنفسهم ، ثم ينكره كثير من « المسلمين » ! مؤرخين وغير مؤرخين !

ونمضى فى المقتطفات . . يقول شاتلييه بعد ذلك فى المقدمة :

« ولا شك فى أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها ، ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية . فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية يحتك الإسلام بصحف أوربا وتتمهد السبل لتقدم (!) إسلامى مادى ، وتقضى إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التى لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها » .

وهو كلام كذلك له خطورته . فهو يبين لنا — فيما أحسب — هدف الاستعمار الصليبي من نشر اللغات الأوربية فى البلاد الإسلامية التى يستعمرها . إنه أولا وقبل كل شىء هدم الفكرة الدينية الإسلامية .. ثم إنشاء أى شىء بعد ذلك ، أو عدم إنشاء شىء على

الإطلاق ! فالمهم هو الهدم وليس هو الإنشاء . . باعتراف شاتلييه نفسه إذ يقول فى الفقرة التالية :

« ولا ينبغى لنا أن نتوقع من جمهور العالم الإسلامى أن يتخذ له أوضاعا وخصائص أخرى إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية (المستمدة من الفكرة الإسلامية) إذ الضعف التدريجى فى الاعتقاد بالفكرة الإسلامية وما يتبع هذا الضعف من الانتقاض والاضمحلال الملازم له ، سوف يفضى بعد انتشاره فى كل الجهات إلى انحلال الروح الدينية من أساسها لا إلى نشأتها بشكل آخر » :

كلام صريح لا يحتاج إلى تعليق . . فتعليم اللغات الأوربية هدفه إضعاف الاعتقاد بالفكرة الإسلامية . وهذا الضعف مقدر له — فى علم الاستعمار الصليبى وتدبيره — أن يتبعه انتقاض واضمحلال ملازم له . . وهذا هو المطلوب !

وهنا نقف لحظة لنرد على هذا السؤال : هل كنا نمتنع إذن عن تعلم اللغات الأوربية — وهى الوسيلة الكبرى أو الوحيدة للمعرفة فى الوقت الحاضر — بسبب أن الاستعمار يستخدمها لإضعاف العقيدة الإسلامية ؟

كلا ! فالامتناع عن تعلم اللغات وإقفال باب المعرفة حماقة لا يطلبها لنفسه عاقل ! وإنما السبيل هو أن نتعلمها بوعينا وإرادتنا ، لا على النحو الذى يريده لنا الاستعمار . نتعلمها كما تعلم المسلمون الأوائل اليونانية

والفارسية والهندية ـ لغات العلم يومئذ والمعرفة ـ دون أن تتأثر بذلك عقيدتهم ، بل تعلموها لخدمة هذه العقيدة ومد نشاطها إلى كل فروع المعرفة.. ويومها أصبح المسلمون هم علماء الأرض .. مع بقائهم مسلمين !

ووقفة أخرى ـ لا يملك الإنسان نفسه إزاءها ـ ليقارن بين هذا الصنيع الصليبي فى العالم الإسلامى ، وبين ماصنعه الإسلام فى البلاد المفتوحة ، ليتبين لنا الفرق بين اتجاه واتجاه !

فمالا شك فيه أن المسلمين نشروا لغتهم العربية فى البلاد التى فتحوها ، وأنهم فتحوا هذه البلاد لينشروا فيها الإسلام . . ولكن أى فرق . . !

لم يحفظ التاريخ قط أن المسلمين سعوا بأية وسيلة ملتوية إلى « استلاب » الناس من عقيدتهم وأفكارهم ليدخلوا الإسلام ! وإنما كانت الدعوة صريحة مكشوفة لا تحايل فيها ، ولا ضغط كذلك ولا إكراه .

يقول ت . و . أرنولد ـ وهو كاتب مسيحى ، فوق مستوى الشبهات فيما نحن بصدده ! ـ فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام The Preaching of Islam » ص ٤٨ من الترجمة العربية لحسن إبراهيم حسن وآخرين :

« ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التى قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب ، بأن القوة لم تكن عاملا حاسما فى تحويل الناس إلى الإسلام . فمحمد نفسه قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية ، وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية ، كما أتاح

لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم فى أمن وطمأنينة »

ويقول فى ص ٥١ : « ومن الأمثلة التى قدمناها آنفاً عن ذلك التسامح الذى بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين فى القرن الأول من الهجرة ، واستمر فى الأجيال المتعاقبة ، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام ، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة . وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح » .

ثم إن نشر اللغة العربية فى البلاد المفتوحة ، الذى كان مقصودا به ولا شك فتح الباب السلمى لاطّلاع الناس على العقيدة الجديدة ، حتى يعتنقوها ـ إذا أعجبتهم ـ دون إكراه ، [1] لم يكن مقصودا به ، ولاهو

(١) يخلط كثير من الكتاب الغربيين من أعداء الإسلام — ويلتبس الأمر كذلك على المسلمين — بين الفتح الإسلامي المسلح ، وبين نشر العقيدة بالسيف . فالأمر الأول قد حدث بالفعل ، والثانى لم يحدث قط ، باعتراف ذلك الكاتب المسيحي الذى استشهدنا به . ومفرق الطريق بين الاثنين أن المسلمين فتحوا البلاد بالغزو المسلح ليزيلوا فقط القوة المادية التى تمنع الناس من التعرف السلمي المحايد على الإسلام ، ومن اعتناقه إذا أرادوا ، ممثلة فى الدولة ونظمها وجيوشها ؛ ثم تركت الناس بعد ذلك أحراراً حرية كاملة فى أن يعتنقوا العقيدة التى يريدونها بلا ضغط ولا إكراه ، فيظلوا يهودا أو مسيحيين إذا شاءوا — كما حدث بالفعل — بحماية المسلمين ورعايتهم ، أو يدخلوا — إذا شاءوا — فى الدين الجديد . وكل ما كان يعنى الإسلام هو إقامة نظامه الاجتماعي العادل فى الأرض ، ليستظل بظله الجميع ، دخلوا الإسلام أم بقوا على عقائدهم بلا إكراه .

أدى قط إلى الاضمحلال والانتقاض ، ولا إلى انحلال الروح الدينية من أساسها بحيث لاتنشأ بشكل آخر ، ممايصرح شاتلييه أنه هدف الاستعمار الصليبي ، وإنما كان مقصودا به ، وأدى بالفعل إلى إنشاء الروح الدينية الصحيحة بصورة قوية بناءة فى واقع الحياة .

ويكفى هذا التفريق . . ونمضى فى الطريق ، نسجل المقتطفات .. أو فى الحقيقة الاعترافات !

يستمر شاتلييه فى المقدمة فيقول :

«ولكننا نعود فنقول : إنه مهما اختلفت الآراء فى نتائج أعمال المبشرين من حيث الشطر الثانى من خطتهم وهو الهدم ، فإن نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائما للمجهودات التى تبذل فى سبيل التربية النصرانية. والتقسيم السياسى الذى طرأ على الإسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوربية ، إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية ، وسوف لا يمضى غير زمن قصير حتى يكون الإسلام فى حكم مدنية محاطة (محاصرة) بالأسلاك الأوربية » .

وهذه الفقرة القصيرة تشتمل وحدها على حقيقتين خطيرتين :

الأولى سبق الإشارة إليها ولكنها هنا تصاغ بصورة أوضح وأصرح ، وهى أن الجهود التى تبذل ، هى فى سبيل التربية النصرانية ،

لا فى سبيل نشر الحضارة من حيث هى تراث إنسانى لا يعرف الدين ولا الوطن ، وتشترك فيه البشرية بكاملها ، كما كان يخيل للمستغفلين من المسلمين فى الشرق ، إزاء أعمال « التمدين » التى يقوم بها الاستعمار فى البلاد الإسلامية ، وكما كان يزعم المأجورون من دعاة هذا الاستعمار أو المتسممون بسمومه .

إنها فى صراحة ووضوح جهود تبذل فى سبيل التربية النصرانية ، ويصاحبها ويلازمها نزع الاعتقادات الإسلامية من النفوس .

والثانية أن التقسيم السياسى الذى طرأ على الإسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية « الأوربية » أى — كما شرحها شاتليه — المدنية النصرانية . .

وهذا التقسيم السياسى الذى يشير إليه الكاتب هو تفتت العالم الإسلامى إلى دويلات شبه مستقلة ، يقوم بالحكم فيها حاكم شبه مستقل ، أو طامع فى الاستقلال ، يتبناه الاستعمار الصليبى وينفخ فيه من روح الشيطان .

هذا التفتيت كان عملية مقصودة ولا شك ، ليتم الغزو ، الدينى والحربى ، بصورة أسرع وأيسر مما لو كان العالم الإسلامى وحدة — مهما يبلغ من ضعفها فهى صعبة التفتيت ، وتجزئتها تزيدها ضعفا على أى حال .

ثم إن هذا يؤيد ويؤكد ما سبق أن ذكرناه ، وكررناه ، من أن المدنية الأوربية بذاتها — أو « التطور » كما يلذ « للمثقفين » أن يسموه — لم يكن مستطيعاً وحده أن يفسد من العالم الإسلامى ما أفسد ، لولا هذا الدك المستمر فى قلاعه على أيدى الاستعمار الصليبى ، بنزع العقيدة الإسلامية من النفوس بكل وسيلة يملكها المبشرون والمستعمرون .

* * *

وقد كانت هذه المقدمة فى الحقيقة كافية لتوضيح ما نقصد إليه من هذه المقتطفات . كافية لبيان الكيد الذى دبر للإسلام للقضاء عليه منذ قرن مضى،ولبيان أن هذا الكيد ذاته هو الذى ما يزال يجرى عليه العالم الصليبى فى علاقاته مع العالم الإسلامى ، مع فارق واحد ، أنه لم يعد — دائماً — يعلن عن أهدافه — فيما عدا صراحات رجل كالمسيو بيدو فى فرنسا — وإنما صار أميل إلى إخفائها والتستر عليها ، بل نفيها أحياناً بكل وسيلة ممكنة . . وذلك لسببين :

الأول : أن هذا الكيد قد فعل فعله فى حقيقة الواقع ، وما تزال دفعته سارية ، فيحسن التستر عليها حتى تؤدى عملها فى هدوء ، ويحسن عدم التشويش عليها بما يوقظ الناس إلى حقيقة أهدافها .

والثانى : أن الاستعمار الصليبى قد وجد أسناده الداخليين —

من بين المسلمين الذين استُعمرت أرواحهم وتسممت نفوسهم — الذين يكل إليهم المهمة الكبرى فى تحطيم العقيدة الإسلامية، دون أن يتدخل تدخلا سافراً كما كان مضطراً قبل نصف قرن ، ودون أن ينكشف للناظرين . . وجد أسناده الداخليين فى كل مكان فى العالم الإسلامى، من « الكتّاب » و « المفكرين » و « الموجهين » و « المثقفين » و « التحرريين » و « التقدميين » و « التطوريين » . . وغيرهم ممن يملكون التوجيه والتأثير . . يسند إليهم المهمة ويستريح ، ويقف ساخراً يفرك يديه من غفلة المستغفَلين وسهولة الكيد على الكائدين !

كانت المقدمة التى كتبها شاتلييه واقتطفنا منها هذه الفقرات كافية لبيان هذا كله ، بحيث نستغنى عن مزيد من المقتطفات من البحث نفسه المسمى « غزو العالم الإسلامى » أو « الغارة » عليه . لولا أن فى بقية الكتاب تفصيلات نافعة فى الخطوات التى اتخذها الاستعمار الصليبى لقتل العقيدة فى نفوس المسلمين وتحويلهم عنها . تفصيلات قد تزيد علمنا بالوسائل ، إن لم تزد علمنا بالأهداف .

* * *

ينقسم الكتاب إلى فصول مختلفة عن « تاريخ التبشير » و« مؤتمر القاهرة التبشيرى سنة ١٩٠٦ » و« مؤتمر ادنبره التبشيرى سنة ١٩١٠» و « المؤتمر الاستعمارى الألمانى» و «مؤتمر لكنو التبشيرى سنة ١٩١١»

و « التنظيم المادى لإرساليات التبشير » و « مقاصد المبشرين وآمالهم فى المستقبل » . وفى كل فصل من هذه الفصول تفصيلات مختلفة .
ولا يهمنا هنا أن نسير مع هذه التفصيلات ولا أن نقتطف من كل الفصول . وإنما نكتفى فقط بالعبارات ذات الدلالة ، كما صنعنا من قبل فى مقدمة شاتالييه .

* * *

جاء فى ص٣٣ من الكتاب (فى فصل « مؤتمر القاهرة سنة ١٩٠٦ ») .

« أما الذين تعلموا على الطريقة الشرقية فى الأزهر وما يماثله ، فلم يتكلم أعضاء المؤتمر عنهم إلا بعض اقتراحات ونظريات : من ذلك أن أحد أعضاء المؤتمر أفاض فى وصف ماللجامع الأزهر القديم من النفوذ ، وإقبال الألوف عليه من الشبان المسلمين فى كل أقطار العالم . وتساءل عن سر نفوذ هذا الجامع منذ ألف سنة إلى الآن . ثم قال : إن السنيين من المسلمين رسخ فى أذهانهم أن تعليم العربية فى الجامع الأزهر متقن ومتين أكثر منه فى غيره ، والمتخرجون فى الأزهر معروفون بسعة الاطلاع على علوم الدين ، وباب التعليم مفتوح فى الأزهر لكل مشايخ الدنيا خصوصا وأن أوقاف الأزهر الكثيرة تساعد على التعليم فيه مجانا ، لأن فى استطاعته أن ينفق على ٢٥٠ أستاذاً . ثم تساءل

عما إذا كان الأزهر يتهدد كنيسة المسيح بالخطر . وعرض اقتراحا يريد به إنشاء مدرسة جامعة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها، وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحية فى الدنيا على اختلاف مذاهبها لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة ، وتتكفل هذه المدرسة الجامعة بإتقان تعليم اللغة العربية .

. . . . . . »

« وختم كلامه قائلا : ربما كانت العزة الإلهية قد دعتنا إلى اختيار مصر مركز عمل . لنسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحى لتنصير الممالك الإسلامية » (! !) .

الأزهر إذن يتهدد كنيسة المسيح بالخطر ! وينبغى لذلك إزالته من الطريق ! ولكن كيف وهو راسخ القدم منذ ألف سنة أو تزيد ؟ ! الطريق هو إزالة « تفرده » الذى تفرد به هذه الألف من السنين ! فإذا أصبح له شبيه من أى نوع ، فقد ذهبت قيمته وانصرف الناس عنه إلى شيء جديد !

* * *

وجاء فى ص ٣٦ من نفس الفصل :

« خاض المؤتمر بعد ذلك فى مسألة إرساليات التبشير الطبية ، فقام المستر هاربر وأبان وجوب الإكثار من الإرساليات الطبية ، لأن

رجالها يحتكون دائما بالجمهور ، ويكون لهم تأثير على المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين » .

وفى ص ٣٧ : « يجب على طبيب إرساليات التبشير أن لا ينسى ولا فى لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شىء ثم هو طبيب بعد ذلك » .

ولا يهمنا من هذه الفقرات أكثر من التذكير ببعض وسائل التبشير ، وكيف كانت « الخدمات الإنسانية ! » تتخذ وسيلة لتحطيم الدين !

* * *

وجاء فى ص ٤٨ :

« والنتيجة الأولى لمساعى هؤلاء (المبشرين) هى تنصير قليل من الشبان والفتيات ، والثانية تعويد كل طبقات المسلمين أن يقتبسوا بالتدريج الأفكار المسيحية » .

ومن قبل فى ص ٤٧ :

« ينبغى للمبشرين أن لا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة ، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتحرير النساء » .

وسنعود إلى موضوع تحرير النساء مرة أخرى فنتحدث عنه بشىء

من التفصيل . أما هنـا فنلفت النظر إلى أن المبشرين فى ذلك الوقت (سنة ١٩٠٦) كانوا قد كفّوا عن التطلع إلى تنصير المسلمين بمعنى تحويلهم إلى اعتناق المسيحية ، واكتفوا بما يغنى — فى نظرهم وفى الحقيقة — عن هذا التنصير ، وهو « تعويد كل طبقات المسلمين أن يقتبسوا بالتدريج الأفكار المسيحية » أو « الميـل الشديد إلى علوم الأوربيين » .

والفقرتان من كلام القس زويمر ، وقد مر بنا أنه كان من أخطر المبشرين فى مصر وما حولها من البلاد الإسلامية . وهو يعنى ما يقول فى هاتين الفقرتين . فليس المهم أن يتنصر المسلمون رسمياً ، وإنما المهم أن يتنصروا فكرياً وروحياً . . وهو ما نجح فيه الاستعمار الصليبى نجاحا لا شك فيه .

* * *

وجاء فى ص ٥٢ :

« ومؤتمر المبشرين الذى عقد فى القاهرة لم يفته البحث فى حركة الإصلاح (!) التى دخلت فى مسلمى الهند ، والإشارة إلى « السير سيد أحمد خان » زعيم تلك النهضة، وماتبذله مدرسته الإسلامية فى « عليكره » ومؤتمر التربية الإسلامية . ولقد خطب القسيس ويتبرتشت فى مؤتمر

القاهرة بموضوع « الإسلام الجديد » (!) فذكر أن تعاليم أوربا تقرب المسلمين من النصرانية » .

وهنا تتبدى لنا عناية الاستعمار الصليبي فى « التقاط » كل شخص أومذهب منحرف من بين المسلمين ، وتكبيره والإشادة به والنفخ فيه ، لأنه كما جاء فى ص ٤٦ من الكتاب : « تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها » .

كما تلفت النظر تلك الإشارة إلى « الإسلام الجديد » . . الإسلام المتطور الذى يبشر به المبشرون المسيحيون . . ويتبنونه وينفخون فيه لأنه يقرب المسلمين من النصرانية !

* * *

فى ص ٦٠ .

« وقد قال أحد المبشرين : المدارس هى من أحسن الوسائل لترويج أغراض المبشرين » .

وفى ص ٨٢ :

« إن الحكومة (يقصد الحكومة الألمانية التى تحكم مستعمرات ألمانيا الإسلامية فى أفريقيا) لابد لها من القيام بتربية الوطنيين المسلمين

فى المدارس العلمانية مادام هؤلاء المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية »

وفى ص ٧٢ :

« اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى فى عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التى أسسها الأوربيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجح على تأثير العمل المشترك الذى قامت به دول أوربا كلها » .

وهذه الفقرات — والأخيرة منها خاصة — لا تحتاج فى خطورتها إلى تعليق . فالقوم يعترفون أن هذه المدارس — العلمانية ! ! — كان لها تأثير فى حل المسألة الشرقية يزيد على كل ما قامت به دول أوربا من قرارات سياسية للقضاء على العالم الإسلامى وتفتيته إلى دويلات خاضعة للنفوذ الغربى .

و « المسألة الشرقية » تعبير جرت به الكتب الغربية فى تأريخها للفترة الأخيرة من الخلافة العثمانية . ويقصدون « بحلها » من وجهة نظرهم القضاء على تلك الخلافة التى كانت — رغم كل شىء — رمزاً لوحدة العالم الإسلامى ، وقوة تخشاها أوربا رغم ما أصابها من وهن وضعف حتى كانوا يطلقون عليها اسم : الرجل المريض ! . لقد

ظل هذا الرجل المريض يزعجهم ويرعبهم ويقلق أعصابهم — وهو مريض — حتى قضوا عليه نهائيا فى الحرب الكبرى الأولى بمساعدة حليفهم الخفى أتاتورك ، الذى أضفوا عليه ألقاب البطولة والعظمة لقاء الخدمة الكبرى التى قدمها للعالم الصليبى ، بإزالة رمز الوحدة الإسلامية ، وإقامة دولة هزيلة فى تركيا على أساس لا دينى ، قرت بها عيون الصليبيين وقلوبهم ، وما زالوا يذكرونها بالخير العميم[1].

(١) بينا من قبل كيف كان السبيل — الإسلامى — لإزالة مظالم الخلافة التركية دون القضاء على العقيدة الإسلامية ذاتها كما فعل أتاتورك لحساب الاستعمار الصليبي . وينبغى أن نتذكر جيداً وقائع التاريخ الحديث التى أدت إلى القضاء على الخلافة . فأتاتورك لم يكن مخلصا فى إصلاح الأحوال فى العالم الإسلامي . وإنما كان مخلصا لسادته وموجهيه من الصليبيين والصهيونيين ، لتحقيق الغرض الذى سعوا إليه ودبروا له المكائد حتى استطاعوا فى النهاية أن يحققوه . وإلا فقد أتيحت لأتاتورك فرصة — للاصلاح — لم تتح لغيره من قبل ، وكان يملك من القوة المركزة فى يديه مايسمح له بتنفيذ كل ما يريد تنفيذه . ولكنه استخدم هذه القوة كلها فى تحطيم الإسلام لا فى إقامة قواعده . وكانت من ورائه — تحركه — أحقاد الصليبيين الذين ظلوا أكثر من خمسمائة عام يرتعدون فرقا من وطء الدول الإسلامية عليهم — كما قرر ولفرد كانتول سميث فى كتابه « الإسلام فى التاريخ المعاصر » — وأحقاد الصهيونيين بعد إذ رفض السلطان عبد الحميد إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين المسلمة . ومن ثم راحت تلك القوى الصليبية والصهيونية تشنع بمساوىء الخلافة العثمانية ومظالمها لتهيىء لهدمها من قواعدها ، وراحت تخلق لأتاتورك بطولات زائفة ليتمكن فى ظلها من القيام بفعلته الآثمة لهدم الإسلام ، فتراجعت أمام « بطشه ! » — فى صورة مسرحية — قوات الحلفاء التى خرجت من قبل ظافرة فى الحرب العظمى ! وتحطمت أمام « جبروته ! » كل العقبات ! ثم كتبت عنه بأقلام صهيونية وصليبية

وفى هذه الفقرات يعترف الـكاتب أن المدارس العلمانية قد فعلت فى حل المسألة الشرقية . . أى فى تحطيم الإسلام . . أكثر مما فعلته السياسة والحرب والجيوش ! وتلك هى المدارس التى كنا نفتح لها قلوبنا وأفـكارنا ، ونربى فيها أبناءنا وبناتنا مفاخرين ! !

* * *

جاء فى ص ٦٤ فى فصل « مؤتمر إدنبرج — سنة ١٩١٠ » .

« وأعمال مؤتمر إدنبرج لم تكن حبراً على ورق بدليل أن المؤتمر الاستعمارى الألمانى الذى عقد عقب مؤتمر إدنبرج التبشيرى اهتم بأمر إرساليات التبشير الجرمانية ، حتى خيل إلى الناس أن هذا المؤتمر الاستعمارى السياسى تحول إلى مؤتمر تبشير دينى » !

وفى ص ٨٠ من نفس الفصل :

« نشرت المجلة السويسرية التى نقلنا عنها المقالة الماضية مقالة ذات

= مئات الـكتب التى تشيد ببطولته الخارقة بـكل لغات العالم ! ليـكون قدوة للعالم الإسلامى تحتذى فى كل مكان !

وبهذا الـكيد المتجمع استطاعت الصليبية والصهيونية أن تحطما الرمز الذى يتجمع حوله العالم الإسلامى ، والذى يجعل منه قوة عالمية يحسب حسابها فى كل حدث من أحداث التاريخ . واستبدلتا به هذه الدولة الهزيلة الضعيفة الفقيرة المضطربة التى لا يقيم لها أحد وزنا ولا يحسب حسابها أحد ! ومع ذلك فان ولفرد كانتول سميث يشيد فى كتابه « بقوتها » و« وتقدمها » و « نظامها » ويدعو المسلمين جميعهم أن يحذوا حذوها ليصيروا مثلها « أقوياء » !

شأن عن موقف إرساليات التبشير فى المؤتمر الاستعمارى الألمانى .
ومما يزيد فى أهمية هذه المقالة أنها مكتوبة بقلم « ا . ك . اكسنفلد »
صاحب التقرير عن الفرع المختص بالإسلام فى المؤتمر الاستعمارى
وهو أيضاً سكرتير جمعية التبشير فى برلين . قال صاحب المقالة :
إن المؤتمر الاستعمارى امتاز بميزتين : الأولى أنه بحث فى الشئون
الصناعية والاقتصادية ، والثانية إجماعه على وجوب ضم المقاصد السياسية
والاقتصادية إلى الأعمال الأخلاقية والدينية فى سياسة الاستعمار الألمانى .
واستشهد بقول « شنكال » رئيس غرفة التجارة فى همبورج :
إن نمو ثروه الاستعمار متوقف على أهمية الرجال الذين يذهبون إلى
المستعمرات . وأهم وسيلة للحصول على هذه الأمنية إدخال الدين
المسيحى فى البلاد المستعمرة ، لأن هذا هو الشرط الجوهرى للحصول
على الأمنية المنشودة حتى من الوجهة الاقتصادية . . ثم حدث خلاف
بين المبشرين وأعضاء المؤتمر فى وجهة النظر إلى الإسلام . فقام اكسنفلد
كاتب هذه المقالة فى المجلة السويسرية ولفت الأنظار إلى الخطر الإسلامى
فى المستعمرات الألمانية بأفريقية ، واقترح على المؤتمر الاهتمام من كل
الأوجه بمراقبة الحال الحاضرة ، سواء فى ذلك الوجهة التبشيرية والوجهة
الفكرية ووجهة السلطة السياسية » .

وهذا يكفى فى بيان الصلة العميقة بين الاستعمار والتبشير ، وفى أهمية قتل العقيدة الإسلامية فى نظر المستعمرين «حتى من الوجهة الاقتصادية» البحتة ، التى يزعم الاستعمار الصليبى أنها كانت دافعه الأوحد لاستعمار العالم الإسلامى ! ويجاريه فى ذلك مستغفلون من المسلمين !

* * *

وجاء فى ص ٩٤ فى فصل « مؤتمر لكنو سنة ١٩١١ » .

« والآن لم يبق غير ٣٧٫١٢٨٫٨٠٠ مسلم تحت سلطة حكومات إسلامية . وانتقلت السلطة السياسية على أكثرية المسلمين من يد الخلافة الإسلامية إلى يد انجلترا وفرنسا وروسيا وهولاندة . وعدد المسلمين الذين تحت سلطة كل واحدة من هذه الدول يفوق عدد المسلمين الموجودين فى كل أرجاء السلطنة العثمانية . وإن عدد المسلمين الذين تحت سلطة الدول النصرانية سيزداد كثيراً عقب انقلابات قريبة الحصول ، وبذلك تزداد مسئولية الملوك النصارى فى مهمة تنصير العالم الإسلامى ... »

* * *

وأخيراً موضوع المرأة !

سبق أن أثبتنا الفقرة التى اقتطفناها من ص ٤٦ من الكتاب ، والتى تقول :

« ينبغى للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين

ضعيفة . إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتحرير النساء » .

وفى صفحتى ٨٨ ، ٨٩ وردت الفقرتان الآتيتان بشأن قرارات مؤتمر لكنو ومؤتمر القاهرة :

« كل هذه الحوادث (بوادر قيام نهضة فى العالم الإسلامى) تحتم على الكنيسة أن تعمل بحزم وجد ، وتنظر فى أمر التبشير والمبشرين بكل عناية . وعلى ذلك فيشمل برنامج مؤتمر لكنو الأمور الآتية :

« أولها : درس الحالة الحاضرة .

« ثانيها : استنهاض الهمم لتوسيع نطاق تعليم المبشرين والتعليم النسائى .

« ثالثها : إعداد القوات اللازمة ورفع شأنها .

« هذا ما نشرته مجلة الرئيس عن مواد تضمنها برنامج المؤتمر . أما البرنامج نفسه فقد عرض على المؤتمرين بعد قراءة الخطب الافتتاحية وانتخاب اللجنة وتلاوة تقارير لجنة مواصلة أعمال مؤتمر القاهرة ، وهذه مواده :

« الأولى . . . .

« . . . . . .

« السابعة : الارتقاء الاجتماعى والنفسى بين النساء المسلمات .

ما هذه العناية الشديدة « بتحرير » المرأة المسلمة و « تعليم » المرأة المسلمة و « الارتقاء الاجتماعى والنفسى » للمرأة المسلمة ؟ ! وممن ؟ ! من المبشرين ومؤتمرات التبشير ؟ ! ومتى ! ؟ عندما يكون هناك « خطر » من قيام نهضة فى العالم الإسلامى ! وعندما يكون المطلوب اتخاذ قرارات ضد هذه النهضة ؟ !

ماهذه العناية الشديدة بهذا كله ، وما علاقة تحرير المرأة وتعليمها وترقيتها اجتماعياً ونفسياً ، بالقرارات التى تتخذ لقتل الإسلام والإجهاز عليه قبل أن يحاول النهوض من جديد ؟ !

أليس هذا كلاماً يلفت النظر ؟ أليس كلاماً له خبىء ؟ !

نعم . . لقد كانت حركة « تحرير المرأة المسلمة » من أخبث ما قام به الاستعمار الصليبى من حركات ، لتفتيت كيان الإسلام ومحاولة اقتلاعه من الجذور . فقد كانت كفيلة — وحدها — ببث الانحلال الخلقى والفكرى والدينى فى الشعوب المسلمة ، بما تعجز عنه الوسائل الباقية كلها مجتمعات . .

حين تخرج المرأة عارية فى الطريق ، تعرض فتنتها لكل راغب ، وتثير فى الرجل شهوة الحيوان .. عندئذ لا إسلام ولا دين ولاعقيدة .. ولا تماسك فى أخلاق الشعب ولا صمود . . ويجد الاستعمار الصليبى

فرصته السانحة لتسديد الضربة الأخيرة . . ضربة الإجهاز . . .

ويتراءى للنفوس ذلك السؤال : أو لم تكن المرأة المسلمة فى حالة من الجهالة والتأخر والانحطاط والجمود والعبودية تحتاج معها إلى « تحريرها » وتعليمها ، وترقيتها اجتماعياً ونفسياً ؟ !

بلى . من غير شك . .

ولكن الاستعمار الصليبى حين أقدم على ذلك لم يكن بطبيعة الحال يعمل لصالح المرأة المسلمة ولا المجتمع المسلم ، وقد سبق من كلام المبشرين أنهم يعملون على تفتيت هذا المجتمع وإفساد أخلاقه وتذويب عوامل القوة فيه وتحويلها إلى عوامل ضعف . .

فحين « حرر» المرأة لم يحررها للنهوض بالمجتمع وترقيته والارتفاع به كما زعم ، وكما زعم أجراؤه من بعده ، وإنما «حررها» ليفسدها هى أولا ويفسد معها بقية المجتمع .

وحين « علمها » ، كان يعلمها لتعرف الفساد وتتقنه ، وتجعله فساداً قائماً « على أصول » ! أصول تربوية مرة ، وسيكلوجية مرة ، واجتماعية وفكرية مرة . . . وهو فى كل مرة فساد .

وحين «ارتقى بها اجتماعياً ونفسياً» ، كان يقصد إلى الانحدار بها فى هوة الفتنة والغواية ، حيث تبقى هناك إلى ماشاء الله . . ترتكس على الدوام . وكان له بالفعل ما أراد . . .

والتحرر . . والتعليم . . والارتقاء الاجتماعى والنفسى . . كله من أهداف الإسلام بالنسبة للمرأة المسلمة . ولكنه لا يقوم على أساس الانحلال الخلقى والدينى كما أراده الاستعمار الصليبى للقضاء على الإسلام. وإنما يقوم على أسسه الرفيعة التى تحقق للفرد البشرى أعلى ما فى طوقه من الرفعة والتكريم ، مع المحافظة على نظافة المجتمع ونظافة الأخلاق[1].

وقد تحدثت فى كتب أخرى عن وضع المرأة كله فى الإسلام ، وما أريد أن أعيد هنا ماقلته هناك . ولكنى أشير فقط ، بصدد الحديث عن الاستعمار الصليبى فى العالم الإسلامى، إلى أن قضية المرأة و «تحريرها» كانت أكبر فتنة اجتماعية وضعها ذلك الاستعمار لتفتت المجتمع الإسلامى كله ، كما يفتت البارود أصلب الصخور .

* * *

وبجانب هذا الكيد كله كانت الجهود التبشيرية « العلمية ! » التى يقوم بها المستشرقون !

ولقد أدى المستشرقون دورهم « بإخلاص » فأحدثوا أكبر فتنة فكرية كان فى طوقهم أن يحدثوها فى العالم الإسلامى . . بين « المثقفين » من أبنائه . وقد مهدت لهذه الفتنة طريقة الدراسة ذاتها فى المدرسة الابتدائية والثانوية ، ثم فى « المدارس العليا » . .

(١) انظر بالتفصيل كتاب « معركة التقاليد » وبصفة خاصة فصل « حين نكون مسلمين »

وفى الجامعة بعد ذلك ،حين حلت الجامعة مكان تلك المدارس بالتدريج.

ولئن كان « التبشير » كان مقصودا به العوام من الناس ، حسب ماجاء فى كتبهم ، وحسب ما كان واقعاً بالفعل ، من اندساسهم بين الجهلة والعوام فى المدن والأرياف ، فقد كان الجهد الاستشراقى موجها إلى « المثقفين » ، فهم الذين يدركون « القضايا » التى يثيرها المستشرقون ضد الإسلام ، من فكرية وفلسفية وتشريعية واجتماعية واقتصادية ، ويتأثرون بها وقد حُقِنُوا من قبل « بمبادئ » هذه السموم فى المدارس والجامعات ، وصاروا مستهدفين لها ، سريعى الاستجابة إليها . . ثم هم الذين يمكن أن يوكل إليهم بعد ذلك أن ينشروا هذه السموم ذاتها فى الأجيال التالية : فى كتبهم وصحفهم ، ومدارسهم وجامعاتهم ، وبيوتهم ونواديهم ، بحيث يجئ على مرور الأيام جيل « مثقف » لايعرف عن الإسلام إلا الشبهات !

وقد ناقشت فى كتاب «شبهات حول الإسلام» كثيرا من الشبهات التى يلقيها المستشرقون حول الإسلام ، والتى ورثها من بعدهم الشيوعيون وأضافوا إليها فى الجانب الاقتصادى مالم يكن المستشرقون الغربيون يعنون به كثيرا من قبل ، فى مسائل الملكية الفردية والإقطاع والرأسمالية ..إلخ . ولم أناقش فى ذلك الكتاب شبهات العقيدة، والوحى، وصحة النبوة . . . إلى آخر تلك السخافات التى يمعن المستشرقون فى

إثارتها بلجاج وسخف والتواء ، لأننى — فى ذلك الكتاب خاصة — كنت مشغولا بالإسلام كواقع حىّ يعيش فى المجتمع وينظم علاقات أفراده بعضهم ببعض ، لامن حيث هو « نظرية عقيدية » تشغل الذهن أكثر مما تشغل الحياة . ولأنى أحس — دائما — أن مجادلات المستشرقين فى « العقيدة » و « الوحى » و « النبوة » أسخف من أن يتصدى لها أحد بالجدال ، ويكفى — مثلا — أن رجلا كمرجليوث ، يعتبر من أئمة المستشرقين ، وله هنا فى بلادنا تلاميذ «عظام !» يدعون له ولأفكاره بشأن الشعر الجاهلى والقرآن ، يقول فى بحثه عن الإسلام فى موسوعة تاريخ العالم Universal History of the World إن محمدا صلى الله عليه وسلم رجل مجهول النسب ، لأنه محمد « ابن عبد الله » .. وقد كان العرب يطلقون على من لايعرفون نسبه اسم عبدالله !!!

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم . . . بن قصى . . محمد رسول الله ، مجهول النسب فى بيئة لا تعرف شيئاً كما تعرف الأنساب ، ولا تعتز بشئ كما تعتز بالأنساب ، وهو يتحدى آلهتها وتقاليدها وعبادتها وعاداتها وأوضاعها كلها بنسبه المجهول !!!

فأى سخف وأى تفاهة فى التفكير والتعبير ؟!

وعلى أى حال فلست بصدد الرد على التواءات المستشرقين ومجادلاتهم بشأن الإسلام ، وإنما أنا أسجل فقط خطوات التاريخ .

وأقتطف هنا سطورا موحية من كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » تأليف ليو بولد فايس (محمد أسد) وترجمة عمر فروخ . يقول فى ص ٥٨ — ٥٩

« وبعد بضعة عقود جاء زمن أخذ فيه علماء الغرب يدرسون الثقافات الأجنبية ويواجهونها بشئ من العطف ، أما فيما يتعلق بالإسلام فإن الاحتقار التقليدى أخذ يتسلل فى شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية . وبقى هذا الخليج الذى حفره التاريخ بين أوربة والعالم الإسلامى غير معقود فوقه بجسر . ثم أصبح احتقار الإسلام جزءا أساسيا من التفكير الأوربى . والواقع أن المستشرقين الأولين فى الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون فى البلاد الإسلامية ، وكانت الصورة المشوهة التى اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير فى موقف الأوروبيين من « الوثنيين » (أى المسلمين !) غير أن هذا الالتواء العقلى قد استمر ، مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير ، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذه عذر من حمية دينية جاهلية تسىء توجيهها . أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التى خلقتها الحروب الصليبية ، بكل مالها من ذيول ، فى عقول الأوربيين الأولين » .

ولقد أدى المستشرقون خدمات جليلة للمباحث الإسلامية دون

شك . . . فطريقتهم المنظمة ، وصبرهم العجيب على استخلاص النصوص وتحريرها — وإن كانت لهم أخطاء كثيرة فى فهم النصوص وتفسير الأحداث — وجلدهم المثالى على الغوص فى بطون الكتب العربية القديمة التى لا رابط فى تأليفها ولا نظام ، والتى لا يصبر عليها العرب أنفسهم أصحاب هذه اللغة وحماتها والقائمون عليها ، ولا يتجهون إلى البحث فيها وهى تراثهم الذى ينبغى عليهم حفظه ونشره والاستفادة به.

كل هذه الصفات النادرة ، والجهود الضخمة التى بذلوها فى بعث النصوص القديمة ونشرها ، على الرغم من الأخطاء الكثيرة — المضحكة أحياناً — فى الفهم والتأويل .. ينبغى أن تسجل لهم بالحق . ولكن العبرة — مع ذلك — ليست بالجهد الذى بذل ، إنما العبرة بالهدف الذى بذل هذا الجهد من أجله وعمل فى سبيله . هل كان هذا الهدف هو « خدمة » الإسلام ، أم تشويه الإسلام وتلويث صورته فى النفوس ؟

وهل كان « ضمير العالم » هو الذى يسيطر على المستشرقين فى هذا الجهد المضنى الذى بذلوه ، أم كان المبشر المختفى فى إهاب المستشرق ، هو الذى يدفع هذا الجهد ويغذيه ؟ !

وأين هو ضمير العالم فى مرجليوث الذى يحاول التشكيك فى نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فى الجزيرة العربية التى كان حفظ الأنساب عندها « فريضة » مقدسة تفرضها البيئة والتقاليد ؟

وأين هو فى جرونيباوم الذى يقول فى كتابه « الإسلام » إن العلم كان مطلوبا منه فى نظر الإسلام أن يخدم الدين . . أى أمور الآخرة (!) فى حين يقرر فى نفس الكتاب أن الإسلام بالذات نظام دنيوى أخروى فى آن واحد ، لا ينفصل فيه الدين عن الدنيا ، ولا المجتمع عن الشريعة !

وأين هو فى فلهوزن فى كتابه « الدولة العربية » حيث يقول إن أبا بكر وعمر اغتصبا الخلافة من المسلمين اغتصابا (ولو قال من علىّ كرم الله وجهه لكانت هناك وجهة نظر على الأقل ! ولكنه يقول من المسلمين !) وإن محمدا صلى الله عليه وسلم هادن اليهود وحالفهم وهو ضعيف القوة ، فلما قوى « انقلب » عليهم ، وطردهم بدافع من القومية ! ! ولا يذكر ما يسجله التاريخ من أن اليهود هم الذين نقضوا عهدهم مع المسلمين ، وفعلوا كل ما يفعله المحارب من تأليب المشركين عليهم فى مكة ، والتآمر مع المنافقين فى المدينة ، ونشر الأراجيف . . وأخيراً الاعتداء الشائن على امرأة من المسلمين .

وأين هو فى جولدتسيهر فى كتابه « العقيدة والشريعة فى الإسلام » الذى يقول فيه إن الإسلام ليس فيه شىء جديد « لا فى الأفكار ولا فيما يتصل بعلاقة الإنسان بما هو فوق حسه وشعوره وباللانهاية » إذ هو فى نموه مصطبغ بالأفكار والآراء الهلينستية ، ونظامه الفقهى الدقيق

مستمد من القانون الرومانى، ونظامه السياسى متأثر بالنظريات السياسية الفارسية وتصوفه يمثل تيارات الآراء الهندية والأفلاطونية الجديدة ! ! !

وأين هو فى « قايين رابن» تلميذ مرجيليوث فى كتابه : « اللغات القديمة فى غربى بلادالعرب » الذى يقول فيه إن القرآن قد احتوى على أخطاء لغوية ونحوية (! !) وإن المسلمين على مر الأجيال قد صححوا كثيراً منها ولكن مازال بعضها باقيا حتى اليوم !

إلى آخر هذا اللغو الذى لا يحترمه عقل ولا علم ولا ضمير . .

ومع ذلك كله فللمستشرقين فى الشرق الإسلامى معجبون كثيرون . . وتلاميذ !

وتصل الفتنة إلى حد أن بعض المسلمين أنفسهم ، ممن لا يشك الإنسان فى ضمائرهم ، يخدعون فى كتاباتهم فيجعلونها مراجع لهم لا فى البحث عن الحوادث التاريخية ، ولا فى تحرير النصوص ؛ بل فى البحث عن أصل التصور الإسلامى ، وفى تفسير أحداث التاريخ الإسلامية ، حتى شخصيات العصر الأول . . دون فطنة إلى أن الهدف الأول للاستشراق — سواء أكان ظاهرا أم خفيا — كان تلبيس هذه العقيدة ، وإلقاء الغبش فى التصور الإسلامى ، والتشكيك فى الشخصيات موضع القدوة ، وفى دوافع الرجال الكرام الذين أسسوا هذا الدين .

فإذا كانت الفتنة تصل إلى هذا الحد عند هؤلاء « المسلمين » ضميراً وثقافة . . فكيف هى عند « رعاع » المثقفين الذين لا يعرفون عن الإسلام إلا ما يقوله لهم هؤلاء المستشرقون ، وكيف هى عند المتحللين المنسلخين من هذا الدين ، الذين تتفتح نفوسهم وتشرق لهذا الطعن والتشويه ، بقدر ما تنقبض من كل كلام يصحح الأفهام ويذكر الحقائق كما أنزلها الله وعرفها المسلمون ؟ ! « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون »[1] .

نعم . لقد كان جهد المستشرقين جزءاً من الكيد المنظم لهذا الدين .

وهو جهد خبيث . . .

فقد تعلموا من بدء المعركة أن المهاجمة الصريحة للمسلمين فى عقيدتهم ليس لها نتيجة سوى استفزاز مشاعرهم وإيقاظهم إلى الكيد المرصود لهم ، فيزيدهم ذلك تمسكا بالدين !

لذلك لجأوا إلى طريق أخبث . . هو دس السم فى العسل كما يقولون . . . فهم يبدأون بتمجيد الإسلام ورسوله ، والإشادة بالفضائل الجمة العالية التى يشتمل عليها هذا الدين . . . فإذا اطمأن

---

(١) سورة الزمر [٤٥] .

المسلم إلى أنه فى جو صديق لا يضمر له السوء ، وألقى سلاح الانتباه واليقظة . . . فهنالك يُدَسّ له السم وهو غافل ، وتوضع — فى وسط التمجيد — تلك الغمزات والتشويهات ، التى تصل فى النهاية إلى تشكيك الناس فى حقائق عقيدتهم ، ونمو الشبهات خفية فى داخل النفس أو علانية فى وضح الذهن !

وهذه هى الخدعة الماكرة . . فمن ذا الذى يشك — وهو يرى كاتبا مسيحيا لا يؤمن بالإسلام يكيل له هذا المديح كله — من ذا الذى يشك بعد ذلك فى صدق كل حرف يقوله ، وفى أن هذه المطاعن موجودة حقيقة فى الدين ، وإنما كان يخفيها عن بصيرته التسليم الأعمى الموروث ، حتى قيض الله له ذلك « العالم النزيه » ليكشف له عن الأباطيل ، ويريه الحقائق فى وضح النور . . وفى ضوء « العلم » الذى لا يتحيز ولا يميل ؟ ! !

فإذا هززت أحدهم من غفوته وغفلته . . وقلت له كيف تنتظر من غير مسلم أن يقول لك الحق فى أمر الإسلام ؟ ! وكيف تتخذ منه مصدر المعرفة فى أمر دينك وهو لا يؤمن بهذا الدين ؟ قال — بلسانه ، وهو ما يزال فى غفلة المبهور — حقاً إنه لا يؤمن بالإسلام .. ولكنه يبحث بحثاً « علمياً » حراً لا علاقة له بالدين ! ! !

وجميل أن نأخذ عن المستشرقين طريقة البحث المستأنية الصابرة

المنقبة فى بطون الكتب وحواشيها ، ونحن أقدر منهم بعد ذلك على فهم النصوص وتأويلها ، وتفسير الحوادث ووزنها ، وتقويم الشخصيات ووضعها فى مكانها الصحيح . أما أن نأخذ «حقائق» الدين عنهم .. ؟!

ألا إنها الفتنة الصليبية التى تحيق بالمسلمين !

* * *

وأمامى الآن كتاب أعُده أخبث ما قرأت من كتب المستشرقين ! ذلك هو كتاب « الإسلام فى التاريخ المعاصر » الذى أشرت إليه أكثر من مرة فى فصول هذا الكتاب .

إنه يسير على الطريقة ذاتها . . طريقة التمجيد . . ثم دس ما يريد من الأفكار فى ظل هذا التمجيد .

ولكن عنصر الخبث الزائد فيه أنه يقرّ لك بحقائق لا تتصور أن كاتبا غربيا مسيحيا يمكن أن يقر لك بها بحال من الأحوال . وذلك ليعطيك جو « الثقة » المطلقة ، والنزاهة العلمية الكاملة التى لا تحتمل أى شك ولا تأويل !

فهو — كما أثبتنا من قبل — يقر لك بأن أوربا لا تستطيع أن تنسى الحروب الصليبية ، ولا أن تخرج من ذاكرتها أن الإسلام ظل يهددها فى عقر دارها بضعة قرون .

وهو يقر فى ص ١١١ بأن الغرب وقف فى صف الصهيونية

ضد العرب المسلمين ، متأثراً بتلك العداوة القديمة بين المسيحية والإسلام.

ويقر فى صفحات ١٠٤ — ١١٣ أن الغرب يوجه كل أسلحته : الحربية والعلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية . . . إلخ . إلى العالم الإسلامى بغرض إذلاله وتحقيره وإشعاره بالضآلة والخنوع .

بل يقر — فيما يختص بالعقيدة المسيحية ذاتها ، فى مقارنة بين « التضحية » الإسلامية والتضحية المسيحية ، فى الفصل الأول من الكتاب — يقر بأن فى العقيدة المسيحية لوناً من السلبية إزاء أحداث التاريخ ، بينما الإسلام إيجابى حتى فى تضحيته . فبينما يضحى المسيحى بنفسه ، بوقوفه فى وجه عجلة التاريخ المنحرفة حتى تدوسه وتقتله، وحسبه أنه لم يسمح لها بالسير المنحرف وهو حىّ ، دون أن يحاول تصحيح العجلة أو تغيير اتجاهها ، فإن المسلم يضحى بنفسه وفى حسه أن هذه التضحية ستدفع عجلة التاريخ إلى الأمام فى اتجاهها الصحيح .

ماذا تريد من رجل غربى مسيحى أن يقول لك خيراً من ذلك وأنزه؟!

فهل تشك بعد ذلك فى شىء مما يقول ؟ !

هل تشك مثلا فى إخلاصه وحسن نيته حين يقول لك فى الفصل الرابع إن تركيا التى أقامت دولتها على أساس غير دينى (secular) هى والله العظيم مسلمة لم تخرج عن إسلامها ! وإنما هى فقط فسرت الإسلام تفسيرا جديدا ، يفصل بين الدين والدولة وبين الدين والمجتمع

وبين الدين والتقاليد وبين الدين والاقتصاد وبين الدين والتشريع . .
وبين الدين وواقع الحياة ! !

وحين يقول لك إن تركيا هـذه هي المثل الأعلى الذى ينبغى للمسلمين فى كل بلاد الأرض أن يحتذوه ، ليحصلوا على « القوة » التى حصلت عليها تركيا ، وعلى العلم .. والحضارة. والتقدم .. ورفعة الشأن ؟! (على أن واقع تركيا الذى يعرفه الناس جميعاً يصرخ فى وجهه ، ويشهد بمأساة الضعف والفقر والذلة ، والفوضى التى انتهت إليها فى العصر الحديث) .

وحين يقول لك فى الفصل الخامس إن باكستان دولة فاشلة لأنها أقامت نظامها على أساس الدين ، وإنها مثل سيئ لا ينبغى للمسلمين أن يحتذوه ؟! (مع أن هو نفسه ينسى - فى مكان آخر من نفس الفصل ص ٢٢٥ فيقول إن سبب الفشل فى باكستان هو أن الحزب الذى تولى الحكم عند نشأتها لم يكن مؤسساً على روح إسلامية ، ولا معرفة حقيقية بالإسلام ، وإنما هو الحزب الذى كان الاستعمار البريطانى فى الهند قد رباه واحتضنه ودربه وقربه إليه !!)

أو حين يقول لك فى نهاية الكتاب بعد لف طويل ودوران مرهق : إن على المسلمين اليوم - لكى يعيشوا فى العالم الحديث - أن يتنازلوا عن الفكرة الرئيسية فى عقيدتهم ، وهى أن الإسلام لا يمكن

أن يقوم إلا فى مجتمع مسلم . ويستبدلوا بها أن يعيشوا مسلمين(عقيدةً !) فى مجتمع لا يقوم على أسس الإسلام ! ! ! (وهى الغاية الأولى لأعمال الاستشراق كما هى الغاية الأولى لرجال التبشير . . وهى هى الغاية التى يهدف إليها الاستعمار والمستعمرون !) .

هل عندك شك فى إخلاصه أيها القارئ العزيز ؟ ! !

* * *

تلك هى الحرب الصليبية التى وجهت إلى الإسلام فى عصره الحديث . .

وقد قال ولفرد كانتول سميث فى كتاب « الإسلام فى التاريخ المعاصر » بعد أن استعرض تاريخ العداء الصليبى بين المسيحية والإسلام فى ص ١١١ :

« ونحن لا نستعيد هنا هذا التاريخ الطويل من الصراع لنشعله من جديد بطبيعة الحال ، أو لنبرر المهاترات بأية صورة ، وإنما لنقول فقط إنه لايجوز أن نتوقع النجاح السريع لمن يرجون أو يعملون على التراضى والتفاهم (بين الكتلتين) » .

ونحن هنا نستعير الجزء الأول من عبارته . . فما سردنا هذا التاريخ كله لنثير الأحقاد الصليبية فى النفوس ، وإنما لنعرف فقط من أين أُتِى الإسلام وبأى الوسائل .. والنتائج التى وصل إليها الغرب من هذا الصراع.

لقد كانت نتيجة تلك الحرب هى تلك الأجيال « المسلمة ! » التى

لا تعرف من الإسلام إلا اسمه ، وإلا أنه مجموعة من العبادات يؤديها الإنسان فيكون قد أدى كل ما عليه من « إسلام » .

أو .. لا تعرف من الإسلام إلا الشبهات . .

وكان نتيجتها ذلك « المسلم » الذى يقول : أنا مسلم مادمت أصلى وأصوم .. ولكن لاعلىّ أن آخذ أفكارى وتقاليدى ونظام اقتصادى ونظام مجتمعى من أية فكرة على الأرض غير مسلمة أو أى نظام غير مسلم .

وتلك « المسلمة » التى تقول : أنا مسلمة مادامت نيّتى حسنة . . ولكن لا علىّ أن ألبس كما أشاء ، وأخالط الشبان كما أشاء ، وأكوّن معهم من العلاقات ما أشاء .

وفوق هذا وذلك المسلم والمسلمة اللذان ينسلخان من دينهما علانية ، ويعلنان أنه رجعية وتأخر وجمود ....

ومع ذلك كله فلم تكن الحرب الصليبية وحدها هى التى تعمل لتفتيت العقيدة الإسلامية وتشويهها ، والعمل على سلخ الناس منها بكل وسيلة ممكنة . وإنما كانت تعمل إلى جانبها – وإن كان عن طريقها – تيارات أخرى ، تقتلع العقيدة من جذورها ، وتجتثها من أساسها . . تيارات لا تعمل فى داخل العالم الإسلامى وحده . . وإنما هى تيارات عالمية !

تيارات عالمية

حين جاءت هذه التيارات العالمية وأخذت تؤثر فى الإسلام ، كان العالم الإسلامى مغزواً لها من قبل ، مفتوحاً لتأثيراتها ، لا يملك المقاومة ولا الصمود .

وهذه التيارات لا تعمل ضد الإسلام وحده ، بل تعمل ضد « العقيدة » الدينية ذاتها أياً كانت هذه العقيدة . . ولكنها جاءت فى أوربا نتيجة طبيعية ومنطقية للأحوال كلها هنالك . وجاءت تدريجية . . لا مفاجئة .

أما بالنسبة للعالم الإسلامى فهى تيارات غريبة . . غير نابعة من البيئة أو الظروف ، ولا منسجمة معها أى انسجام . . إنها مقحمة عليها إقحاماً غير منطقى وغير طبيعى .

ولو كان العالم الإسلامى حراً . . وقوياً كما كان . . ومتماسك القواعد والأركان . . فقد كان من المشكوك فيه كثيراً أن تزلزل هذه التيارات شيئاً من بنيانه ، أو تغير تغييراً أساسياً فى مفاهيمه . . وإن تأثرت بها نوعاً من التأثر بطبيعة الحال . .

أما وهو مكتوف بقيود الاستعمار وأغلاله . . أما وهو ضعيف

واهن القوى ، من عوامل الضعف الـكامنة فيه من قبل ، والسموم التي تجرعها من بعد . . فلم يـكن بد من أن يتلقى هذه التيارات تلقى العاجز الموهون ، الذى لا يملك المقاومة ولا الصمود .

وهذا « التطور » كما تسميه أوربا لم يـكن — على هذا النحو — « حتمياً » كما يتوهم القوم هناك . وإنما خيّل إليهم هناك أنه حتمى ، لأنه — كما قلنا — جاء نتيجة طبيعية ومنطقية لأحوالهم وظروفهم . ومع ذلك فلم يـكن حتمياً حتى فى أوربا ، وحتى فى تلـكم الظروف . . لوشاءت أوربا أن تؤمن بمثل أخرى وقيم أخرى تصد بها تلك التيارات وتوقفها عن السريان .

ولـكن أوربا لم تشأ . . فـكانت الحتمية هناك : « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم[1] » .

وعلى أى حال فلم يـكن هذا التطور — على هذا النحو — حتمياً بالنسبة لجميع الأرض . . وبالنسبة للإسلام على وجه الخصوص .

وليست هذه أول مرة فى التاريخ يواجه الإسلام فيها الدنيا كلها بغير ما تعتقد وما تألف ، فيتخذ هو طريقه ، بمفاهيمه الخاصة وقيمه ومبادئه ، تاركا للدنيا إلفها واعتقادها ، ثم . . يؤثر فى هذه الدنيا

---

(١) سورة الرعد [١١]

بمفاهيمه وقيمه ومبادئه ، فيصرفها عن طريقها المعوج ، ويوجهها إلى السبيل الصحيح .

جاء الإسلام والدنيا كلها تقدس ملوكها وأباطرتها وحكامها . . وتعبدها من دون الله .. فهل كان هذا المفهوم السياسى « حتماً » على الإسلام لأن الدنيا كلها تدين به ؟ أم جاء الإسلام ليعلّم الحكام أن يقولوا : « اسمعوا وأطيعوا ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » أويقولوا : « إن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى » فيجعلوا من الأمة المهتدية بهدى الله رقيبة على أعمالهم ويطالبوها بالرقابة عليهم ؟ !

وجاء الإسلام والفساد الخلقى يملأ الأرض . . فهل كان هذا المفهوم الخلقى (الذى لعله كان متطوراً !) ذا قوة حتمية على المجتمع الإسلامى تفسد أخلاقه وتهبط به إلى الحيوانية التى ارتفع عنها ؟ أم ظل هذا المجتمع — رغم كل ما أصابه من فساد — أنظف مجتمع عرفه التاريخ ، حتى جاء المستعمرون والمبشرون « يجاهدون » لإفساده مدى قرنين من الزمان ؟!

وجاء الإسلام وشريعة الغاب هى الحاكمة : القوى يأكل الضعيف .. فهل كان هذا المفهوم الإنسانى الهابط (الذى « ارتفعت » إليه أوربا فى نهضتها الحديثة !) ذا قوة حتمية على الإسلام . . أم جاء

الإسلام يقرر مبدأ التعاون بين القادرين وغير القادرين فى المجتمع ، ويظل يطبقه أكثر من ألف عام ؟ !

إن التطورات ليست حتمية إلا حين يلغى الإنسان كيانه الإيجابى ويترك نفسه للأحداث . فعندئذ تقوده الأحداث بطبيعة الحال إلى حيث ينتهى بها التيار ، ما دامت لا تجد تعديلا ولا مقاومة من جانب الإنسان .

وهى حتمية كذلك حين يكون الإنسان أضعف من أن يقاوم التيار . . وكذلك كان العالم الإسلامى بعد أن حكمه الاستعمار الصليبى فى كل مكان .

* * *

وقد أوحى الاستعمار الصليبى بلا شك إلى العالم الإسلامى المستعبَد ، أن هذا التطور حتمى أولا وخيّر كذلك . حتى لا تجنح البقية الباقية فيه من عقيدة إلى مقاومة التيار المفسد المدمر . وأخذ يقوى هذا الإيحاء الخبيث ، بأن يبث فى الأذهان أن كل مقاومة لهذا التطور العالمى الخيّر هى رجعية لا ينبغى للإنسان أن يتصف بها ، وجمود وانحطاط وتأخر ، ينبغى الإقلاع عنه والتخلص من كل آثاره . فمن ذا الذى يزج بنفسه فى هذا المنحدر ، ويلصق بنفسه تهمة الجمود والانحطاط ؟ ! أو ليس الأسلم والأمثل أن يسير الإنسان « مع التيار »

فيضمن السمعة « الحسنة ! » سمعة الرقى والتقدم والرفعة ، وينجو من تهمة الرجعية والجمود ؟!

يذكرنى ذلك بمنظر حدث على الشاطىء . . قبل سنوات !

فتاة (كان) بها بقية ضئيلة من حياء . . حياء الأنثى الطبيعى الفطرى . . ولو أنها تلبس « المايوه » وتسير به على الشاطىء ! جلست على الرمال ليلتقط لها المصور صورة ، جلست بهذه البقية الضئيلة من الحياء مضمومة الرجلين . . فقام المصور يفسح ما بين رجليها ليلتقط لها صورة « تقدمية ! » ولكنها راحت — فى حياء ضئيل — تتأبى عليه . عندئذ قال لها بلهجة ذات معنى « الله ! هوّه أنت فلاحه والا إيه ؟! » .

وفى الحال كانت البقية الضئيلة من الحياء قد تلاشت من نفس الفتاة ووجهها، وجسدها جميعاً.. وجلست منفرجة الرجلين فى« طلاقة ! » تسجل نفسها فى « پوز » تقدمى جميل !!

وهكذا كان حال الاستعمار الصليبى مع المسلمين المستضعفين : « هل أنتم رجعيون ؟ . . أم ماذا ؟ ! » فتتلاشى المقاومة ويحل محلها الاستسلام !

وكذلك سرت « المدنية » الأوربية فى طريقها « الحتمى ! » فى بلاد العالم الإسلامى المسلوب العقل والإرادة والتدبير !

وقد كان « التصنيع » مثلا ، تطورا عالميا خيّرا فى كثير من جوانبه . . فهل سمح له الاستعمار الصليبى أن يلج باب العالم الإسلامى ويستقر فى أرجائه ؟ أم منعه بكل شدة وحسم ، واحتفظ بالبلاد الإسلامية فى حالة ذريعة من التأخر الصناعى والاقتصادى ليخدم أغراضه الخاصة ؟

وإنما فتح البـاب على مصراعيه للفساد الخلقى والدينى باسم التطور ، لأن ذلك يخدم أغراضه فى حل أخلاق الأمة الإسلامية وتفتيت قوتها ، ومنع عنها فى ذات الوقت كل وسائل القوة والفلاح ، ولو كانت تطوراً عالميا « حتمى » الانتشار .

وهذا مثل واحد ، لعله يوضح الكثير من القضايا التائهة فى أذهان المسلمين وهم يفكرون فى « التطور » وفى « الحتمية » وما أشبه ذلك من أضاليل الاستعمار .

بقى أن نعرف ما هذه « التيارات العالمية » التى فتح الاستعمار أبواب العالم الإسلامى لاستقبالها ، ومنع وسائل مقاومتها وحطّمها ، ونفّر منها باسم الرجعية والجمود والتأخر والانحطاط . . .

* * *

ليس من السهل تلخيص قرنين من « التطور » فى بضعة سطور .

وقد بينت فى كتاب « معركة التقاليد » فى فصل « جولة مع

التاريخ » كيف سارت الأمور فى أوربا فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وكيف انتقلت أوربا من شعوب متدينة ذات تقاليد مبنية على الدين — أياً كان هذا الدين ، وأياً كانت درجة هذا التدين ومتانة تلك التقاليد — إلى أمم لا عقيدة لها ولا أخلاق ولا تقاليد . . تعيش فى جو مادى ملحد ، منفلتة من كل قيد ، غارقة فى المتاع الحيوانى الغليظ .

وقلت هناك إن دارون يمثل خطاً بارزاً فى ذلك التطور . . فقد ولد دارون سنة ١٨٠٩ وفى سنة ١٨٥٩ نشر كتابه « أصل الأنواع » ، وفى سنة ١٨٧١ نشر كتاب « أصل الإنسان » .

وحدثت يومئذ زلزلة عنيفة فى عقائد الناس .

فقد كان المفهوم المستمد من الدين أن الإنسان كائن متميز . كائن له روح تميزه عن سائر الحيوان .

وقد ترتبت على هذه الحقيقة قيم روحية ومعنوية ودينية وفكرية .. لا توجد فى عالم الحيوان .

وبغض النظر عن درجة تمسك الناس هناك بهذه القيم ، فقد كانت « موجودة » على أى حال . . موجودة ولو فى الحس الباطن . . تضبط قليلا من انطلاق الحيوان الكامن فى الإنسان .

ولكن دارون جاء يعلن أن الإنسان حيوان متطور .. ولا زيادة !

حيوان بحت . . لم ينفخ الله فيه من روحه ولم تتدخل قوة عليا فى تكوينه .. إنما هو نهاية التطور الحيوانى ، لا يزيد على الحيوان سوى ما اكتسبه فى أثناء تطوره البطىء فى ملايين من السنين !

وقام بين دارون وبين الكنيسة صراع شديد فى أمر الإنسان : هى ترميه بالإلحاد والكفر ، وهو يرميها بالجهل والتخريف .

ووقفت الجماهير فى أول الأمر فى صف الكنيسة . فقد عزّ عليها أن يحقّر دارون الإنسان ويشوه صورته ، برده إلى أصل مادى حيوانى ، ونفى النفخة العلوية عنه ، وسلبه مكانه الرفيع فى الكائنات .

ولكنها عادت فأيدت دارون ضد الكنيسة !

لقد كانت الكنيسة فى العصور الوسطى قد تحولت من معنى الرحمة والروحانية التى توحى بها طبيعة المسيحية ، إلى سلطان دنيوى قاهر مذل . وراحت تفرض على الناس ألوانا من الإتاوات : إتاوات مالية وروحية وفكرية . تفرض عليهم الضرائب المرهقة والعشور والعمل المجانى فى أرض الكنيسة ، وتفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين ، وتفرض عليهم أفكارا معينة بوصفها كلمة السماء ، من خالفها فهو ملحد وخارج على الدين . .

لذلك وجدت الجماهير المكبوتة المحقورة فرصة سانحة للانتقام من

الإذلال الذى كانت تفرضه الكنيسة عليهم ، وقاموا يناصرون دارون رغم تحقيره « للإنسان » !

ولم يقف الأمر — فى فورة الغضب والحماسة — عند تحطيم الكنيسة ذاتها ، بوصفها كيانا « بشريا » مهما تكن قداسته .. وإنما انتهى الأمر بتحطيم الدين ذاته والخروج من كل معانيه ..

وارتدت أوربا منذئذ رومانية خالصة . . مادية وثنية ملحدة ، لا تؤمن بغير المادة المحسوسة والواقع الذى تدركه الحواس . . ولا تستجيب إلا للنفع المادى القريب !

وانساحت تلك الموجة المادية تشمل كل وجه من وجوه الحياة . .

الاقتصاد . . والسياسة . . والدين . . والأخلاق . . والتقاليد . . وعلاقات الناس بعضهم ببعض .

وظهر التفسير المادى للتاريخ . والتفسير الجنسى للسلوك البشرى . . وكلاهما امتداد للمفهوم الداروينى للإنسان [(١)] .

التفسير المادى للتاريخ يفسر الحياة كلها تفسيرا ماديا : تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام . القوى المادية هى التى تكيّف حياة البشرية وتنشئ لها أفكارها وعقائدها . الأفكار والمشاعر والعقائد ليست قيما ذاتية ، وليست هى التى تحرك الناس أو ترسم لهم

---

(١) انظر كتاب « معركة التقاليد » فصلى : «جولة مع التاريخ» و« حقائق وأباطيل»

سلوكهم العملى فى واقع الحياة . وإنما هى لاحقة « للتطور » الاقتصادى والمادى ، ومرتبطة به .

ليست هناك قيم ثابتة اسمها الدين . أو اسمها الأخلاق . أو اسمها التقاليد . . لا شيء ثابت على الإطلاق .

إنما كل عصر له مفاهيمه وقيمه التى تناسبه . والتى لا تناسب غيره من العصور .

الدين والأخلاق والتقاليد كانت من مفاهيم العصر الإقطاعى ومن مستلزماته . أما العصر الصناعى فلا دين له ولا أخلاق ولا تقاليد . إنه عصر متحرر ! عصر منطلق كالآلة التى تسيطر عليه . ينشىء مفاهيم جديدة و « أخلاقا » جديدة . وليس الدين من بين هذه المفاهيم ، لأن البشرية فى عصر العلوم والصناعة قد شبت عن الطوق . لم تعد فى حاجة إلى أساطير الدين وخرافاته . إنها تعيش فى الواقع الملموس . الواقع الذى تدركه الحواس . والدين . . وكل الأفكار « الميتافيزيقية » التى لا يمكن للحواس أن تدركها لم تعد تتناسب مع « نمو » البشرية وتطورها . . إنها من مخلفات العصر البائد التى لا يمكن أن تعود !

والتفسير الجنسى للسلوك البشرى يرد كل نشاط يقوم به البشر إلى الجنس . .

الطفل يرضع بلذة جنسية . ويتبول ويتبرز بلذة جنسية .
ويمص إبهامه بلذة جنسية . ويشعر نحو أمه بميل جنسى . فإذا
وقف « الوالد » حائلا دون هذا العشق الجنسى نبتت عقدة أوديب
التى تكبت مشاعر الطفل الجنسية نحو أمه . ومن هذا الكبت تنشأ
« القيم » . . ينشأ الدين والأخلاق والتقاليد والضمير . . ولكن الدافع
الجنسى يظل هو الدافع الحقيقى المحرك وراء كل هؤلاء ! ثم إن هذا
« الكبت » الذى ينشىء الدين والأخلاق والتقاليد ، هو عملية نفسية
ضارة تنشأ عنها الاضطرابات النفسية والعصبية ، والعقد ، وتبدد النشاط
البشرى فى الصراعات النفسية الداخلية بلا طائل . . والأَوْلَى رفع هذا
الكبت لتنطلق البشرية بلا قيود !

ومن هذين المفهومين سرى « التطور » الحديث فى أوربا !
سرى على أساس حيوانى بحت . .

ولا جرم فقد كان « الإنسان » كما فسره دارون حيوانًا متطورا
ولا زيادة . . وهذه المفاهيم المادية الحيوانية هى اللائقة بهذا الإنسان
الحيوانى ، الذى أطلقه دارون فى التاريخ .

وانحدرت أوربا فى منحدرها بلا ضابط . .

انحدرت تحطم القيم الروحية والدينية والأخلاقية فى كل منحىً
من مناحى الحياة .

الحياة كلها هى المادة ، وهى متاع الحيوان . .

وإذ كان الدين والأخلاق والتقاليد كلها « حواجز » ضد النظرة المادية وضد متاع الحيوان ، فلتحطم بلا هوادة ، ولتستخدم فى تحطيمها كل نظريات « العلم » وأبحاثه وتجاربه . . . ولتُنْشَأ نظريات « علمية ! » تقول إن الدين خرافة . والأخلاق قيد ضار بالبشرية . والتقاليد خرقة بالية يمزقها الجيل الصاعد الجرىء . ونظريات تقول إن الجنس عملية « بيولوجية » لا شأن لها بالأخلاق . وإن كل شاب وشابة « ينبغى » لهما أن يفرغا طاقة الجنس كما ينبغى لهما أن يتناولا الطعام سواء بسواء ، حتى تقر نفساهما وتهدأ أعصابهما وينطلقا إلى الإنتاج المفيد !

وسرت تلك المفاهيم فى المجتمع الغربى سريانا ذريعاً لا يقف عند حد . . وقالت أوربا لنفسها إن هذا هو « التطور » وإنه « حتمى » لا يمكن لقوة أن تقف فى طريقه ، وإن الذى يقف فى طريقه هم الرجعيون المتأخرون الجامدون . . الذين لايفهمون !

وقالت الببغاوات فى الشرق مثل ذلك .

قالت دون أن تسأل نفسها : أصحيح هو ؟

ودون أن تسأل نفسها : أمناسب هو لحياة الشرق حتى إن كان

مناسبا لحياة الغرب ؟ وهل هو نبات طبيعى بالنسبة لهذه البيئة وظروفها حتى إن كان طبيعياً بالنسبة للبيئة هناك ؟

لم تسأل نفسها لأنها مستعبدة فى داخل ضمائرها ، وأنى للعبيد أن يسألوا السادة ويناقشوهم فيما يقولون ؟ . . وهل يمكن أن تخطىء أوربا ؟ هل يخطىء السادة ؟ وهل يعرف أكثر منهم العبيد ؟ !

كلا ! كلا ! ما هكذا تكون الأمور !

كل شىء إلا مناقشة ما يستورد من الغرب من الأفكار والمفاهيم . .

أليس هذا الغرب هو الذى يملك الآلة ونحن لا نملك ؟ ويملك العلم ونحن لا نملك ؟ ويملك القوة ونحن لا نملك ؟ ويملكنا نحن ولا نملك أنفسنا ؟

كلا ! كلا !

إذا كان الغرب قد قال لا دين فلا دين . ولا أخلاق فلا أخلاق . ولا تقاليد فلا تقاليد !

أأنتم رجعيون أم ماذا ؟ !

ألا تتقدمون وتتحضرون وتتطورون ؟!

فلتنبذوا تلك الخرافة البالية التى اسمها الدين . وتلك

القيود العتيقة التي اسمها الأخلاق . وذلك التحجر المشين الذى اسمه التقاليد .

انطلقوا . . تحرروا . . حطموا الأغلال !

اخرجوا أيها الفتيان والفتيات على التقاليد البالية التى يقيدكم بها أهلوكم . . فهم رجعيون . وأنتم الجيل الصاعد المتحضر الذى لا يؤمن بالخرافة .

اصنعوا كما يصنع الغرب . . صداقات . نعم . قبلات وأحضان . نعم . علاقات جنسية « خفيفة » تريحون بها أعصابكم بدل إنفاق الطاقة فى الجنس المكبوت . . !

ووقف الاستعمار الصليبي يفرك يديه ساخراً من الببغاوات ، مسرورا فى ذات الوقت من صنيع العبيد .

نعم . لقد كانت أوربا فى غشيتها الحيوانية تؤمن بهذا الهبوط الحيوانى البشع على أنه تطور وتقدم وارتفاع . ولكن أوربا مع ذلك لم تكن قد فسدت كل جوانبها بعد . كانت ما تزال فيها « فضائل » حقيقية . من أبرزها فضيلة « العمل » و « الإنتاج » و « التنظيم » والصبر الشديد على الجهد ، والجلد الطويل على الصراع . . كل تلك فضائل حقيقية لم تكن قد فسدت بعد بموجة الفساد الخلقى الهابط ، وموجة الحيوانية الفظيعة (وإن كانت قد وصلت إلى نتيجتها

« الحتمية » فيما بعد فى فرنسا وغيرها من البلاد فدمرت كيانها) . .

أما هذا الشرق المستعبد فماذا كان فيه من تلك الفضائل حتى يتحمل هذا « التطور » كله ولا يضعف ولا ينحل من قريب ؟ !

لقد كان الضعف السابق فى ظل الحكم التركى ، والضعف اللاحق فى ظل الاستعمار الصليبى قد دمرا كل فضائله الذاتية القديمة ، التى استمدها من الإسلام يوم كان قوة حية فاعلة ، ممتدة فى الأرض فى كل فروع الحياة من علم وعمل وإنتاج وفتح واتساع . .

وكان فى حاجة إلى « تطور » من نوع آخر . . تطور يعيد إليه إنسانيته المسلوبة وقوته المحطمة . . يعيد إليه أخلاقه وتقاليده على أصولها الحقيقية : قوة حية فى داخل النفس ، متحققة فى واقع الحياة .

وقد كان هذا هدف الحركات الإسلامية التى حرص على تحطيمها الاستعمار .

أما هذا « التطور » الأوربى الحيوانى ، فقد أسرع الاستعمار يفتح له الأبواب ، ويؤجر له الأبواق من المستعبدين الذين رباهم من قبل و « ثقفهم » وأطلقهم ينشرون سمومه فى الآفاق .

* * *

ونعود إلى أوربا . . نساير « التطور » هناك .

لقد نشأ من المفاهيم الداروينية للإنسان رغبة زائدة فى « المتاع » .

وحب المتاع رغبة طبيعية فى البشرية من قديم : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . . ذلك متاع الحياة الدنيا »(1) .

نعم . لا شىء جديد فى حب المتاع . . ولكن الأديان والقيم الروحية التى تحملها كانت تعمل دائما على موازنة تلك الرغبة الفطرية فى المتاع ، بأن تضع فى الكفة الأخرى قيما أعلى من متاع الأرض وأخلد : « ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله »(2) .

والحياة فى نطاق الدين . . فى نطاق الفكرة الإسلامية خاصة . . تحقق أكبر قسط من المتاع النظيف ، دون أن تفسد

---

(1) سورة آل عمران [١٤]
(2) سورة آل عمران [١٥]

النفس بهذا المتاع فتترهل أو تتميع أو تهبط إلى مستوى الحيوان . .

ولكن أوربا فى « تطورها » خرجت من نطاق الدين . وخرجت من « الضوابط » التى كانت تضبط رغبة المتاع . . ومن ثم غرقت فى المتاع بلا ضابط ولا حدود .

بدأت بالمتاع الجنسى . ولكنها لم تقف عنده . وكان طبيعيا ألا تقف عنده . فتلك سنة الله فى كل الأرض على مدار التاريخ . كل حضارة من حضارات التاريخ تسربت إليها الرغبة الزائدة فى المتاع ، بدأت بالمتاع الجنسى ، وتلاه وسار معه متاع فى كل فروع الحياة . متاع يصل فى النهاية إلى الترف والاسترخاء .

وكذلك كانت تلك الموجة « المتطورة » فى أوربا . .

وساعدتها الصناعة والتقدم الفنى فى عالم الإنتاج .

وامتلأت الحياة « بالمباهج » التى تنتجها الصناعه الحديثة : السينما والإذاعة والتليفزيون ، والسيارة الفاخرة . والأثاث الوثير والفراش المريح . . وسعت الصناعة بكل وسيلة إلى « تجميل » الحياة وتزيينها ، وعرضها فى صورة براقة مغرية جذابة . .

ولا عيب فى هذا فى ذاته !

ولكن العيب فى « القيم » التى تحكم الحياة . .

فما هدف الحياة فى نظر المشرفين على هذا النوع من الإنتاج ، وما هدفها عند المتلقين لهذا الإنتاج ؟

ولن ندخل فى جدل مذهبى عن « الرأسمالية » وطريقة إنتاجها وأهدافها الاستغلالية ، لتضمن أكبر قسط من الربح يدخل سهلا إلى جيوب أصحاب رأس المال .

المسألة فى نظرنا أعمق من ذلك . .

فلو لم تجد الرأسمالية الإقبال الشديد على هذا النوع من الإنتاج ، لسعت إلى الربح عن طريق غيره ، ما دام الربح هو هدفها الوحيد كما تقول الشيوعية .

المسألة هى الرغبة فى المتاع الزائد ، التى ولدت فى أوربا فى ظل المفهوم المادى الحيوانى للإنسان ، وسعى الصهيونية العالمية إلى إفساد العالم غير اليهودى (الأميين أو الأمميين كما يدعونهم) لتكون لهم السيطرة الكاملة عليهم ، يوم يقودونهم من مقود الشهوات !

وأيا كانت الأمور فقد امتدت تلك الرغبة فى المتاع الزائد حتى أصبحت « سمة » من سمات الحضارة الحديثة تنشرها فى الآفاق . .

وأيا كانت نتائجها الحاضرة والمستقبلة فى حياة الأمم — كما صنعت فى فرنسا فى الحرب الأخيرة ، وما تزال تصنع فى غيرها من البلدان —

فإن الجانب الذى يهمنا منها هنا هو تأثيرها على المفاهيم الروحية والدينية والخلقية فى كل مكان تحل فيه .

إن التعارض واضح بين الاتجاه الدينى ، والرغبة الزائدة فى المتاع . . لا لأن الدين — الإسلامى بصفة خاصة — يحرم المتاع أو يحاربه ، وهو الذى يقول : « قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ » ولكن لأن المتاع الزائد عن الحد يفسد النفوس ويرهلها ، ويحبب إليها الحياة الدنيا فتنسى الآخرة وتنسى « التكاليف » المرتبطة بالآخرة . . وتنفر من الضوابط التى تحرمها من ذلك المتاع .

وهذا ما حدث بالفعل . . فكلما غرقت النفوس فى المتاع بعدت عن محيط الدين ، ونفرت من قيوده وضوابطه ، وتمنت من صميمها أن يخفت إلى الأبد أو يزول .

ومع « المدنية » التى أغرقت العالم الإسلامى فى ظل الاستعمار ، مرت تلك الرغبة الزائدة فى المتاع ، باسم التحضر والرقى . . أو بأى اسم من الأسماء .

وكانت كالحمض الأكّال يأكل العقيدة من النفوس .

ولم يكن الإسلام ليحرم وسائل الراحة التى توفر الوقت والجهد . . من سيارة وطائرة وقطار سريع ، وثلاجة كهربائية وغسالة كهربائية وفرن وما إلى هذه الأشياء . .

ولم يكن ليحرم السينما فى ذاتها ولا الإذاعة فى ذاتها ولا التلفزيون [1] .

ولكنه ولا شك يحارب روح الترف والترهل ، ويحارب الفجور الخلقى الذى تنشره السينما الحالية والإذاعة الحالية . . التى تعرض الحياة كلها كأنها لحظة جنس هابط مسعور .

وأيا كان الأمر فقد امتد ذلك المحض الأكال من الغرب إلى الشرق ، وسمى « تطوراً » وحضارة ومدنية . . وأضيف إلى عوامل الهدم السابقة كلها ، التى توجه لهدم الإسلام .

* * *

وأخيراً . . موضوع المرأة !

حركات التحرر . . وحركات المساواة . . وحركات الإغراء !

وهى قصة طويلة ما بنا من حاجة إلى سردها بتفاصيلها فى هذا المقام .

وقد تحدثت عنها فى كتاب « معركة التقاليد » بصفة خاصة وفى كتاب الشبهات .

وإنما يكفى هنا أن نقول إن الحركة النسائية فى أوربا كانت حركة « منطقية » مع الظروف الاجتماعية والاقتصادية هناك . ولكن

---

(١) انظر فصل « الإسلام والحضارة » فى كتاب « شبهات حول الإسلام » .

لم يكن « حتما » أن تأخذ صورتها تلك فى أوربا ذاتها لو آمن القوم بغير ما آمنوا به هناك ، ثم لم يكن حتما أن تأخذ نفس الصورة فى العالم الإسلامى حيث لم تكن توجد تلك الظروف على الإطلاق .

وفرق — كما قلنا من قبل هنا وفى الكتب الأخرى — بين إزالة الظلم الذى كان واقعاً ولاشك بالمرأة المسلمة ، من جهالة وعبودية وحيوانية تخالف الإسلام مخالفة صريحة ، وبين اتخاذ تلك الصورة الزرية التى لا تفسد المجتمع فحسب ، بل ترد المرأة ذاتها متاعاً جسدياً مباحاً لكل راغب تتهيأ له الظروف .

بدأت القصة حين نكل الرجل عن إعالة المرأة فى المجتمع الصناعى « المتطور ! » فاضطرت إلى العمل بنفسها لتعول نفسها ، وأحياناً لتعول أسرتها كذلك . فاستغلها أصحاب المصانع وأعطوها نصف الأجر الذى يعطونه للرجل مع أنها تعمل معه فى نفس المصنع وتعمل نفس العدد من الساعات !

وهى « عدالة » لايطيقها إلا الضمير الأوربى المترفع المتطور النبيل !

وكان لابد للمرأة أن تطالب بحقها الطبيعى المنطقى . . واستعملت كل وسائل المطالبة : الإضراب والتظاهر والدعاية والإعلان . . ثم بدا لها أنها لابد أن تشارك فى مصدر التشريع لتستخرج تشريعات فى صالحها ، لأن التشريعات هناك يضعها أصحاب المصالح لاستغلال

الآخرين ، ولا يضعها الله لعباده كلهم كما هو الحال فى الإسلام ، فطالبت بحق الانتخاب ، ثم حق دخول البرلمان .. ثم طالبت بالمساواة فى الوظائف والمساواة فى التعليم . .

وفى الطريق . . طالبت بأنواع أخرى من المساواة !

فقد احتج الرجل على مطالب المرأة . . بالدين وبالتقاليد ! !

ورغم أنه هو كان قد ألقى الدين والتقاليد جانباً . . فقد رأى أن يستخدمهما لزجر المرأة عن مزاحمته فى الميدان . . !

وكان « طبيعياً » ومنطقياً فى مثل الجو الذى تعيش فيه أوربا ، والمفاهيم الهابطة المنحرفه المسيطرة عليها ، أن تطالب المرأة بحق المساواة مع الرجل فى نزع الدين والتقاليد ! وفى حق الفساد الخلقى الذى يمارسه الرجل بلا رادع ، ثم يمنع عنه المرأة باسم التقاليد !

ونالت المرأة الأوربية « حقوقها » واحداً إثر واحد . . بما فى ذلك حق الفساد والفجور !

بل نالت هذا الحق الأخير بمساعدة الرجل وتشجيعه . . فقد وجد الرجل أن ذلك ييسر له المتاع الدنس ، فلا يكلفه أكثر من تهيئة الظروف !

وخرجت المرأة إلى المتجر والمصنع والطريق .

خرجت للكسب وللفتنة فى آن ...

وفى ظل تعاليم فرويد الجنسية ، وفى ظل الرغبة فى المتاع الزائد عن الحد ، وفى ظل التوجيه الصهيونى الخفى لإفساد « الأميين » (أو الأمميين) والاستحواذ عليهم من طريق الشهوات .. فى ظل هذا كله تعلمت المرأة فنون « الإغراء » .

والمسألة ليست فى حاجة إلى تعليم .. ففى فطرة المرأة أن ترغب فى « الإعجاب » وأن تسعى لكسبه بكل سبيل [1] ولكن الوسائل تختلف من مجتمع إلى مجتمع ، ومن فكرة إلى فكرة .. ثم إن الإعجاب يختلف عن الفتنة . فأولهما مباح ونظيف . والآخر لا مباح ولا نظيف . .

ولكن المد الأوربى « المتحضر » لم يكن ليختار الوسائل النظيفة وهو يتلقن على يد فرويد أنه لا نظافة فى طبع الإنسان ! وأن النظافة هى الكبت المدمر للكيان !

فلتنزل المرأة إلى الميدان بأقذر أسلحتها.. أسلحة الإغراء ..وليكن الإغراء هدفا فى ذاته ولو لم يكن هناك هدف آخر من ورائه . . كالحصول على الزوج أو الحصول حتى على العشيق !

الإغراء من أجل الإغراء !

من أجل أن تحس المرأة أنها ذات جاذبية .. ثم ذات سلطان !

---

(١) الرغبة فى كسب الإعجاب فطرية فى الجنسين معاً . ولكن المرأة أميل إلى كسبه عن طريق الجسد مالم يهذبها الدين والتقاليد .

وكان لها فعلا ذلك السلطان !

فما دام الرجل هو ذلك الإنسان الداروينى الشبيه بالحيوان ..

وما دام هو الرجل الواقع تحت سطوة الجنس الذى أطلقه فرويد من عقاله . .

وما دام هو الرجل الراغب فى المتاع الزائد عن الحد ..

مادام الرجل هو ذلك .. فالسلطان الأكبر عليه هو سلطان الشهوة. سلطان الجسد .. وكل مثير لشهوة الجسد فهو فى حياته صاحب سلطان .

ومن ثم فالمرأة « المغرية » فى حسه ذات سلطان .

وأحست المرأة — بالفطرة — أنها كلما زادت إغراء زاد سلطانها على الرجل الغارق فى الشهوات .

ومن هنا أصبح الإغراء هدفا فى ذاته عند المرأة ، ليس من الضرورى أن تستخدمه للحصول على الزوج أو حتى على العشيق .. وإنما هو سلاح تستخدمه مع الرجل عامة ، ولغير هدف سوى أن تحس أنها « موجودة » فى كيان هذا الرجل أو ذاك .

فهى فى حياتها الراهنة أصبحت تعمل وتكدح ، وتشقى فى عملها وكدحها .. ولكنها تعوض هذا الشقاء « بالسلطان » الذى تكسبه عن طريق الإغراء ، وبإحساسها أنها « موجودة » فى قلوب الرجال !

وفتنها سلطانها الإغرائى على الرجل فتمادت فيه ..

وراحت من ورائها — تنفخ فيها — أبواق الشيطان .

السينما العارية والإذاعة العارية والمسرح العارى والقصة العارية والصحافة العارية .. وكل وسيلة من وسائل الإثارة والإغراء ...

وصار كل مكان ميدانا للفتنة .. وتحول العالم إلى ماخور ...

وكان هذا « تطورا » أوربيا تزجيه إلى البشرية باسم الحضارة والارتقاء ! وتحطم به ما بقى — إن كان قد بقى شىء — من الدين والأخلاق والتقاليد .

وكان « طبيعيا » أن يمتد هذا « التطور » إلى العالم الإسلامى المغلوب على أمره ، المغزوّ من قبل بكل لون من ألوان الفساد .

ومع حركة « التحرر » النسوية ، المنقولة من أوربا نقل التقليد بلا تبصر ولا دراسة ، والتى ينفخ فيها الاستعمار ويغذيها لتهدم كيان الأمة الإسلامية — كما سبق من كلام المبشرين — مع هذه الحركة التحررية سرت فنون الإغراء القادمة من الغرب ، فقد كان كل شىء مهيأ لوصولها فى الموعد المرقوب !

وتعلمت المرأة « المسلمة ! » فنون الإغراء . .

ووجدت فى بلدها — وبلغتها — السينما العارية والصحافة العارية والإذاعة العارية والقصة العارية . . تعلمها كلها فنون الإغراء ، وتغريها بها وتحضها عليها . .

ووجدت محررين ومحررات فى باب «المرأة» فى الصحافة يشرحون لها كيف تكون « جذابة ! » أو فى حقيقة الأمر «مغرية» . . وكيف يكون لها على الرجل سلطان !

إغراء فى البيت وفى الشارع . .

إغراء فى اللفظ وفى الحركة . .

إغراء فى الملبس والزينة . .

إغراء فى المشية والجلسة والنظرة . .

وصار الإغراء عند المرأة « المسلمة ! » هدفا فى ذاته . . ليس من الضرورى أن تستخدمه فى الحصول على الزوج ، ولا حتى فى الحصول على العشيق . . وقد صار من « حقها » بتوجيه « الكتاب» المتحررين أن تتخذ العشيق !

وإنما صارت مهمة الإغراء فى حياتها أن تشعر بأنها « موجودة » بقدر ما تمارس من فنون الإغراء إزاء كل رجل تلقاه فى المكتب أو فى الطريق .

بل صارت المرأة « المسلمة ! » أشد رقاعة من زميلتها الغربية ، بحكم « تميع » المجتمع الشرقى فى هذه الفترة . . وانفلات الضوابط كلها . . وتميع الأهداف كذلك فى داخل النفوس .

وتمت الحلقة لهدم كل بقية متبقية من هذا الدين !

* * *

والآن . . بعد هذا العرض المذهل فى أرض الإسلام وفى كل الأرض . .

هل كان المتوقع بعد هذا الجهد الفظيع كله الذى بذل لهدم هذه العقيدة بكل وسائل الهدم . . واشتركت فيه من قريب أو بعيد كل قوى الأرض.. هل كان المتوقع أن يظل على ظهر الأرض إسلام ومسلمون؟!

وكيف يتأتى أن يوجد مسلم أو مسلمة .. وقد كان الهدف الذى سعت إليه قوى التدمير كلها أن تجعل الحياة لهما مستحيلة فى أية بقعة من الأرض، وأن يكون مجرد الوجود بالنسبة لهما كأنه قطعة من الجحيم ؟

جحيم الاضطهاد . وجحيم التضييق. وجحيم الغربة النفسية والفكرية والروحية والاجتماعية التى يلقيانها فى مجتمع غير مسلم . . وجحيم المطاردة والملاحقة بالسخرية والأذى والتحقير والتنفير . .

والمسلمة بصفة خاصة . . بزيها المتميز تميزا حادا فى المجتمع العارى المنفلت من القيود . .

إنه لمن العجب أن يظل إنسان — بعد هذا كله — يقول : لا إله إلا الله . محمد رسول الله .

ومع ذلك . .

هل تعجب . . أو تفزع . . إذا قلت لك . .

إن المستقبل للإسلام ؟ !

المستقبل للإسلام!

المستقبل للإسلام ؟

هل يصدق أحد هذا الكلام ؟ بعد هذه الجهود المدمرة التى بذلت لتحطيمه ، و بعد أن عملت فى القضاء عليه كل العوامل المحلية والتيارات العالمية التى وصفناها فى هذا الكتاب ؟

نعم . .

لقد بذل الاستعمار الصليبى كل ما فى وسعه للقضاء عليه . .

فتت العالم الإسلامى إلى دويلات . .

وأمسك بكل دويلة على حدة يعزلها عن أخواتها ويثير بينها الأحقاد والمنازعات . .

وفى كل منها عزل الدين عن المجتمع وعزل الشريعة عن الحياة . .

وحارب كل حركة تقوم فيها لإحياء الدين و إعادته إلى الواقع الحى المتحرك البنّاء .

ورسم سياسة تعليمية تبعد الشباب النابت عن منابع دينه ، ولا تبقى فى نفسه منه غير الشبهات . .

وحرص على إخراج جيل من «المثقفين» فى كل بلد إسلامى، ينفر

من الدين وينسلخ منه ، ويرى فيه أنه جمود وتأخر ورجعية وانحطاط ..

وحرص على أن يمزق شر ممزق كل حركة تقوم بين المثقفين خاصة تنادى بالعودة إلى الإسلام . . لأن ذلك معناه إضاعة الجهد كله الذى بذله الاستعمار الصليبي فى قرنين من الزمان . .

ونجح فى ذلك كله . .

نجح فى إبعاد المسلمين عن دينهم . .

ونجح فى تعويق أية حركة إسلامية فى الشرق الإسلامى . . لجيل أو أجيال . .

ثم . . ؟ !

ثم تقوم فى أمريكا ذاتهـا ، التى أنفقت ألوف الملايين من الدولارات على الحركة التبشيرية لمحاربة الإسلام . . تقوم حركة إسلامية بين الزنوج هناك يصل أتباعها إلى نصف مليون فى ثلاث سنوات !

وتعتقل أمريكا الزنوج وتعاملهم فى سجونها بالعنف والقسوة — كما تقول مجلة تايم Time الأمريكية فى أحـد أعدادها — فإذا الدعوة تنتشر فى داخل السجون ! وإذا هؤلاء المسلمون — كما تقول المجلة — لا يبالون بشىء فى سبيل الوصول إلى أهدافهم ، لا تصدهم القسوة ولا يرهبهم العنف .. لأنهم صاروا مسلمين ! !

ثم . . ؟!

ثم تكتشف أمريكا ذاتها ، التى أنفقت ما أنفقت لوقف المد الإسلامى فى أفريقيا ، أنها فى حاجة إلى مهادنة الإسلام فى أفريقيا بالذات ، وإلا اكتسحت الشيوعية القارة السوداء ! !

فماذا يصنع « الإنسان » إزاء هذه الإرادة الإلهية التى تأبى أن ينطفىء نور الله فى الأرض : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون »[1] .

* * *

ونترك العالم الإسلامى كله والمسلمين فيه ، وننظر إلى الغرب ذاته الذى اجتاحته تلك التيارات .

إن الإفلاس الروحى الذريع الذى يعانيه الغرب لا يمكن أن يدوم.. إلا إذا كان مقدوراً أن تنتهى البشرية فى هذا الجيل . . .

أما إذا كان فى تقدير الله أن تستمر هذه البشرية أىّ مدًى من الزمان ، فلا بد لها أن تفيق من غفوتها ، وتصحو على الهاوية التى تنحدر إلى أعماقها . .

وقد بدأت تصحو بالفعل . .

بدأت تحس أن هناك جوعة لا يغذيها شىء . لا تغذيها النظم

(١) سورة الصف [٨] .

الاقتصادية . ولا نظم الحكم . ولا التنظيمات الاجتماعية . ولا متاع الأرض كله المتاح للناس كما لم يتحح قط من قبل : متاع الجنس والمباهج المهيأة للترويح عن الناس والترفيه . .

جوعة الروح . . جوعة العقيدة . .

وتتبدى هذه الجوعة فى القلق الدائم الذى يسيطر على النفوس . . والاضطرابات النفسية والعصبية وضغط الدم والانتحار والجنون . . رغم كل هذا التيسير الذى تهيئه الصناعة الحديثة ، ورغم كل الفرص المتاحة للبهجة والمتاع . .

بل كلما أغرق الناس فى المتاع الدنس زادت حدة الجنون . . وزاد الشعور بالجوعة الكامنة فى أعماق الضمير . .

ولابد أن تصحو هذه الجوعة ذات يوم قريب إلى أنها تريد العقيدة . . العقيدة فى الله .. فهى العنصر الواحد الذى لا يحل محله سواه . .

ولن تكون هذه العقيدة المطلوبة تهاويل وتسابيح . . ولا إغراقا فى عالم الروح على حساب بقية « الإنسان » .

وإنما تكون — بعد تجارب البشرية الطويلة هذه — عقيدة تشمل الإنسان كله : عقله وجسمه وروحه .

وليس فى الأرض عقيدة تشمل ذلك كله سوى الإسلام . .

وليس من الضرورى — الآن — أن يصبح الناس اسمهم محمد

وأحمد وعلى . . ولـكنهم سيهتدون — بفطرتهم وتجاربهم الطويلة المريرة — إلى أن هذه العقيدة هى العقيدة المطلوبة التى تشمل الإنسان كله وتوحد اتجاهه ، فلا يتمزق . . كل بضعة منه فى اتجاه .

* * *

و « الموانع » التى تبدو اليوم حاجزا ضخما أمام العقيدة . . أمام العودة إلى الدين . . لن تلبث أن تزول .

ليس هذا أول « انقلاب » فى تاريخ البشرية . .

وماأسهل ماتنقلب الأفكار والمشاعر بعد إذ يبدو أن ذلك مستحيل !

حين تتيقظ البشرية على الخطر المحدق بها من إفلاس الروح ، ستقبل راضية كل « تنظيم » يقوم على أساس العقيدة ، مهما بدا لها مقيدا لانفلاتها الذى تعيش عليه اليوم . . لأن الانفلات هو العلة التى تحدث اليوم الاضطراب . .

والمتاع الدنس ستعدل عنه النفوس إلى المتاع المعقول . . وستجد راحتها الطبيعية الفطرية فى هذ المتاع .

والنشاط الإغرائى الذى تقوم به المرأة اليوم ، والذى يلذ لها أن تجد فيه ذاتها ، ويعز عليها أن تتنازل عنه بعد أن لجت فيه إلى هذ المدى . . هذا النشاط الإغرائى ذاته قد بدأت المرأة — الأمريكية والأوربية — تفزع منه !

إنه يحقق لها ذاتها على نطاق واسع ، نعم . ولكنه كذلك يحقق ذوات الأخريات !

ومن ثم تسطو الأخريات على زوجها وخطيبها ومن تهواه . .

وتنهدم الأسرة ، وتتفكك الروابط ، وتملأ النفوسَ الجراح . .

وستكتشف المرأة عما قليل ، أنها غير حريصة عليه .. وأن خيرا منه أن تحصل على الإعجاب النظيف الذى يحقق الفطرة ويلبيها ، لا على الفتنة التى تورث الشقاء .

* * *

فى ذلك اليوم سيعود الناس إلى الدين . . سيعودون إلى الإسلام .

وتلك قوة أكبر من إرادة البشر ! لأنها مبنية على السنة التى أودعها الله فى الفطرة وتركها تعمل فى النفوس ..

وحين يجىء ذلك اليوم . . فماذا يعنى فى حساب العقائد عمر جيل من البشر أو أجيال . . ؟

ليس المهم : متى يحدث ذلك . .

إنما المهم أنه سيحدث . . سيحدث بمشيئة الله ما لم يقدر الله للبشرية الفناء .

وحين يجىء ذلك اليوم . . وهو آت إن شاء الله . . فماذا

تساوى كل التضحيات والآلام التى تحملتها أجيال من المسلمين ليعقدوا الجسر فوق الهوة الحالية بين الكفر الملحد وبين الإسلام ؟

لا شىء . . .

تضحيات مضمونة فى السماء والأرض : « ولينصرن الله من ينصره . إن الله لقوى عزيز » . صدق الله العظيم

الفهرس

يصدر عن دار الشروق

في شرعية قانونية كاملة

مكتبة الأستاذ سيد قطب

* في ظلال القرآن
* مشاهد القيامة في القرآن
* التصوير الفني في القرآن
* الإسلام ومشكلات الحضارة
* خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
* النقد الأدبي أصوله ومناهجه
* مهمة الشاعر في الحياة
* هذا الدين
* السلام العالمي والإسلام
* معالم في الطريق
* دراسات إسلامية
* نحو مجتمع إسلامي
* في التاريخ فكرة ومنهاج
* تفسير آيات الربا
* تفسير سورة الشورى
* كتب وشخصيات
* المستقبل لهذا الدين
* معركتنا مع اليهود
* معركة الإسلام والرأسمالية
* العدالة الاجتماعية في الإسلام

مكتبة الأستاذ محمد قطب

* الإنسان بين المادية والإسلام
* منهج الفن الإسلامي
* منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول)
* منهج التربية الإسلامية (الجزء الثاني)
* معركة التقاليد
* في النفس والمجتمع
* التطور والثبات في حياة البشرية
* دراسات في النفس الإنسانية
* هل نحن مسلمون
* قبسات من الرسول
* شبهات حول الإسلام
* جاهلية القرن العشرين
* دراسات قرآنية
* مفاهيم ينبغي أن تصحح
* مذاهب فكرية معاصرة
* كيف نكتب التاريخ الإسلامي

تحت الطبع

* المستشرقون والإسلام

من كتب دار الشروق الإسلامية

مصحف الشروق المفسر الميسر
مختصر تفسير الإمام الطبري
تحفة المصاحف وقمة التفاسير
في أحجام مختلفة وطبعات منفصلة لبعض الأجزاء

تفسير القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الإسلام عقيدة وشريعة
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الفتاوى
الإمام الأكبر محمود شلتوت

من توجيهات الإسلام
الإمام الأكبر محمود شلتوت

إلى القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الوصايا العشر
الإمام الأكبر محمود شلتوت

المسلم في عالم الاقتصاد
الأستاذ مالك بن نبي

أنبياء الله
الأستاذ أحمد بهجت

نبي الإنسانية
الأستاذ أحمد حسين

ربانية لا رهبانية
أبو الحسن علي الحسيني الندوي

الحجة في القراءات السبع
تحقيق وتقديم الدكتور عبد العال سالم مكرم

الفكر الإسلامي بين العقل والوحي
الدكتور عبد العال سالم مكرم

على مشارف القرن الخامس عشر الهجري
الأستاذ ابراهيم بن علي الوزير

الرسالة الخالدة
الأستاذ عبد الرحمن عزام

محمد رسولاً نبياً
الأستاذ عبد الرزاق نوفل

مسلمون بلا مشاكل
الأستاذ عبد الرزاق نوفل

الإسلام في مفترق الطرق
الدكتور أحمد عروة

العقوبة في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

موقف الشريعة من نظرية الدفاع الاجتماعي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الجرائم في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

مدخل الفقه الجنائي الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

القصاص في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الدية في الشريعة الإسلامية
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الإسراء والمعراج
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

القضاء والقدر
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
قضايا إسلامية
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
التعبير الفني في القرآن
الدكتور بكري الشيخ أمين
أدب الحديث النبوي
الدكتور بكري الشيخ أمين
الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
اليهود في القرآن
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
أيام الله
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
مسلمون وكفى
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
الدعوة الوهابية
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
قال الأولون ـ أدب ودين
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني
قل يا رب
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني
الإيمان الحق
المستشار علي جريشة
الجديد حول أسماء الله الحسنى
الأستاذ عبد المغني سعيد
الجائز والممنوع في الصيام
الدكتور عبد العظيم المطعني

مناسك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة
الدكتور عبد العظيم المطعني
أيها الولد المحب
الإمام الغزالي
الأدب في الدين
الإمام الغزالي
شرح الوصايا العشر
للإمام حسن البنا
القرآن والسلطان
الأستاذ فهمي هويدي
خفايا الإسراء والمعراج
الأستاذ مصطفى الكيك
الخطابة وإعداد الخطيب
الدكتور عبد الجليل شلبي
تأريخ القرآن
الأستاذ إبراهيم الأبياري
الإسلام والمبادئ المستوردة
الدكتور عبد المنعم النمر
سلسلة أعلام الإسلام ١٦/١
سلسلة أهل البيت ٦/١
إسهام علماء المسلمين في الرياضيات
تأليف الدكتور علي عبد الله الدفّاع
تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقي
مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد
الخبر الواحد في السنة والتراث وأثره في الفقه الإسلامي
الدكتورة سهير رشاد مهنا
الأديان القديمة في الشرق
دكتور رؤوف شلبي

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)